الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة غرداية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

أوصاف المنافقين في القرآن الكريم دراسة دلالية

مذكرة مقدمة لاستكمال متطلبات شهادة الماستر في اللغة العربية وآدابها

التخصص: لسانيات عربية

إعداد الطالب:

محمد مصطفى بن الشيخ

إشراف:

د/ عبد الله وايني

الرقم	الاسم واللقب	الرتبة	الجامعة	الصفة
01	محمد السعيد بن سعد	أستاذ	جامعة غرداية	رئيسا
02	عبد الله وايني	أستاذ محاضر قسم أ	جامعة غرداية	مشرفا ومقررا
03	عبد القادر برجي	أستاذ مساعد قسم أ	جامعة غرداية	مناقشا وممتحنا

السنة الجامعية: (1446/1445هـ /2024-2025م)

الاهداء

إلى أول نبض علّمني معنى الأمان،
إلى من كان حضوره نوراً، وغيابه دعاءً لا ينقطع،
إلى والديّ العزيزين،
اللذين زرعا في قلبي بذور الصبر، وسقياها بالدعاء والعمل،
فلا كلمات توفي عطاءهما، ولا سطور تسع ما لهما من الفضل.

إلى معلمي الأول،
الذي علّمني كيف يكون الحرف حياة،
وكيف يُصاغ الفكر بنبل، ويُبنى العلم على يقين.

إلى من شاركوني الطريق،
إلى من دعموني بصمتهم، بحروفهم، بوقوفهم،
أهديكم هذه المذكرة، لا على سبيل الوفاء،
فمثلكم لا يكافَأ، ولكن على سبيل الامتنان،
عسى أن تجدوا فيها أثراً من جميل صنيعكم، وصدق محبتكم.

وإلى العلم...
ذاك الطريق الطويل، الذي كلما مشيتُ فيه،
ازددتُ يقيناً أن الرحلة فيه لا تنتهي،
أهدي ثمرة هذا السعي المتواضع،
راجياً من الله أن يباركه، ويجعله في ميزان من علّم وأعان.

الشكر والعرفان

الحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وبتوفيقه تتحقق الأمنيات، فهو المنعم المتفضل، ومنه أستمد العون والقوة، والحمد له أولًا وآخرًا، ظاهرًا وباطنًا.

أتقدم بجزيل الشكر والامتنان إلى مشرفي الفاضل الدكتور عبد الله وايني على توجيهه السديد، وصبره الكريم، وملاحظاته العلمية التي أثرت هذا العمل، فكان نعم المرشد والداعم في مسيرتي البحثية.

كما لا يفوتني أن أُعبّر عن خالص امتناني لأساتذة القسم الأكاديميين، ولكل من ساهم في إثراء معارفي ووجّهني بالنصح والتوجيه.

وأتوجه بالشكر الجزيل إلى كل من أعانني في إنجاز هذا العمل، سواء بتوفير مصادر علمية، أو بمشورة نافعة، أو بدعم معنوي في لحظات الإجهاد والتعب.

ختامًا، الشكر كل الشكر لعائلتي الكريمة، التي كانت وما تزال الحضن الدافئ والسند الثابت، فلولاهم بعد الله، لما كنتُ حيث أنا اليوم.

ملخص المذكرة:

يعد النفاق من أخطر الظواهر السلوكية التي واجهها المجتمع الإسلامي في بداياته، لما له من أثر داخلي يهدد تماسك الجماعة. ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة لتتناول **أوصاف المنافقين في القرآن الكريم** من منظور **دلالي**، تسعى فيه إلى الوقوف على الألفاظ القرآنية التي وُصِف بها المنافقون، وتحليلها دلاليًا في سياقاتها المختلفة، لفهم طبيعة هذا المرض الاجتماعي الذي حذر منه الوحي الإلهي مرارًا.

اعتمدت الدراسة منهجًا **وصفيًا تحليليًا**، استقرائيًا وسياقيًا، حيث جمعت الآيات التي ورد فيها ذكر المنافقين، ثم صنّفت صفاتهم إلى ثلاثة مستويات :**قلبية** كـــ(المرض، الشك)، و**قولية** كـــ(الكذب، التلبيس)، و**فعلية** كـــ(الخداع، الإفساد، المراوغة). وقد أظهر التحليل أن هذه الأوصاف لم تكن مجرد نعوت لغوية، بل جاءت محمّلة بدلالات نفسية واجتماعية عميقة، تعكس طبيعة المنافق المضطربة، وسلوكه المتلون الذي يفتقد للثبات والمبدئية.

وبيّنت الدراسة أن **السياق القرآني** يلعب دورًا مهمًا في توجيه المعنى الدقيق لكل صفة، حيث لا يمكن فهم "المرض في القلب" أو "الخداع لله" دون النظر إلى السياق العام للآيات ومقاصدها. فالقرآن يُبرز خطورة النفاق بوصفه عدوًا خفيًا يُقوّض القيم من الداخل، ولهذا كانت الأوصاف القرآنية له دقيقة ومعبرة وذات بُعد تحذيري واضح.

وقد خلصت الدراسة إلى جملة من النتائج، أبرزها: أن **الوصف القرآني للمنافقين يتميز بالعمق التصويري والدقة الدلالية**، وأنه يتكامل ليعطي صورة مركّبة عن هذه الشخصية المنافقة، التي لا تهدد فقط العقيدة بل أيضًا أمن المجتمع واستقراره.

وفي الختام، أوصت الدراسة بمزيد من الأبحاث التي تتناول دلالة الصفات السلوكية في القرآن، ومقارنة بين أوصاف المنافقين والكافرين، لفهم الرؤية القرآنية الشاملة للانحرافات الفكرية والسلوكية.

Hypocrisy is considered one of the most dangerous behavioral phenomena that the Islamic community faced in its early stages, due to its internal impact that threatens the cohesion of the group. From this standpoint, the present study addresses the descriptions of hypocrites in the Holy Qur’an from a semantic perspective. It aims to examine the Qur’anic terms used to

describe hypocrites and to analyze their meanings in different contexts, in order to understand the nature of this social disease that the divine revelation repeatedly warned against.

The study adopts a descriptive, analytical, inductive, and contextual methodology. It collects the verses in which hypocrites are mentioned, and classifies their traits into three levels:

- Spiritual traits, such as (disease, doubt),
- Verbal traits, such as (lying, deception),
- Behavioral traits, such as (betrayal, corruption, evasion). The analysis reveals that these descriptions are not merely linguistic labels, but carry profound psychological and social connotations that reflect the unstable nature of the hypocrite and his inconsistent, unprincipled behavior.

The study highlights the essential role of Qur’anic context in directing the precise meaning of each trait. Terms like "disease in the heart" or "deceiving God" cannot be understood without considering the broader context and objectives of the verses. The Qur’an presents hypocrisy as a hidden enemy that undermines values from within. Therefore, the Qur’anic descriptions are precise, expressive, and clearly cautionary in nature.

The study concludes with several findings, most notably that the Qur’anic portrayal of hypocrites is characterized by vivid imagery and semantic precision. These elements work together to present a complex picture of the hypocrite’s personality—one that threatens not only faith but also the security and stability of society.

In conclusion, the study recommends further research into the semantic dimensions of behavioral traits in the Qur’an, including comparative analyses between the descriptions of hypocrites and disbelievers, to gain a more comprehensive understanding of the Qur’anic perspective on intellectual and behavioral deviations.

مقدمة

مقدمة

شرف الله أمتنا بالخيرية بأن بعث فيها خير البرية وجعل وحيها بالعربية وأنزل القرآن في ليلة مباركة سنية فكانت آياته بين مكية ومدنية هداية للبشرية، ففي هذا دلالة على شرف الحال والمكان والزمان واللسان، ودلالة أن ما يحصل من خير وشرف لآخر هذه الأمة هو ما به حصل لأولها قال تعالى:﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠ ﴾ [سورة آل عمران,110]

غير أنه ومع ما لهذا الدين من سماحة ولين إلا أنه ثمة كثير من الناس لاهم من الأتقياء المؤمنين ولا من الكفرة الجاحدين ولقد أشارت آيات الكتاب المبين إلى كثرتهم فهم أهل الفسق والمنافقون، ولقد ذكرهم القرآن في مواطن عديدة وبأوصاف مختلفة فهم قوم يظهرون عكس ما يضمرون وأعجب من ذلك أنهم يصدقون وهم كاذبون وأنهم بيننا مندسون ...

فكان من آكد الدواعي للبحث في هذا المجال ألا وهو تبيان صفاتهم القبيحة وما نزل فيهم من آي فكانت كشفا لأستارهم وفضيحة، فجاء عنوان بحثي على هذا النحو:

أوصاف المنافقين في القرآن الكريم دراسة دلالية

أما عن **أسباب اختياري** لهذا الموضوع:

- حب الضلوع في مجال البحث سيما وقد تعلق الأمر بكتاب الله عز وجل وبتدبره وبالبحث في مستويات اللغة والمستوى الدلالي الذي يلازم شتى مناحي الحياة ناهيك عن كون المنافقين نافقوا في شتى المجالات
- ليكون هذا البحث خدمة للدين واللغة والمجتمع من خلال ما جمع ودوّن فيه وممّا توصلت اليه.
- الدعوة للبحث في مثل هكذا مواضيع والتي تمس فئات المجتمع من باب الذكرى ودفع الضرر وجلب المنفعة لأكثرهم، وفي بحثي هذا إمعان وتدبر وإسقاط لما تقدم من حال هذه الأمة على ما تأخر.

وعندما كنت بصدد البحث وبالضبط عند رسم الخطة وما أشارت إليه الدراسات السابقة والتي أتت على الموضوع من جل جوانبه منها ما ركّز على الجانب اللغوي فراح يبين ما لمستويات اللغة

من قوة الدّلالة على رسم شخصية المنافق، ومنها ما تتبع الحقب الزّمنية المعاصرة للنبيّ صلى الله عليه وسلم وحال المنافقين في السّلم والحرب.

كانت الصّعوبة في تحديد الدّلالة المناسبة للإلمام بهذا الموضوع وتحليل المواقف والأقوال في عدد محدود من الصفحات حتى وقفت في تفسير الآيات الأولى من سورة البقرة على ما دلّت عليه الآيات التي تبينُ ألواناً من النّفاق كثيرة لفئة تطغى على المجتمع الإسلامي يزداد عداؤها فالغاية عندهم تبرر الوسيلة، وبالتفسير نقف على الدّلالة المرجوة من آي كتاب الله عز وجل لذلك جعلت من التفاسير أداةً لتحليل صفة المنافق ناهيك عن أن الآيات التي نزلت فيهم تكشف خداعهم فكان مما يستحسن أن نقف على ما يحيط بسبب نزول الآية أو الآيات وحتّى السّورة.

واعتمدت في أكثر التفسير تفسير ابن كثير لأن به العديد من الرّوايات الّتي تجمعُ في كلِّ مرّة على ما يسعى إليه المنافقون من تحقيق مبتغاهم من عداءِ للمسلمين وولاية للكافرين وتفضحهم.

فكانت الدّلالة السياقية أنسب الدلالات لفهم ما جاء في القرآن من رسم ووصف دقيق لهذه الفئة أفراداً وجماعاتٍ متّبعاً ترتيب المصحف الشّريف.

وفي فهم السياق والمقام الّذي نزلت فيه الآيات تبرزُ قوّةُ وقيمةُ الدّلالة بدليل أنّ المنافقين من التنزيل يحذرون وأنّه يكشف ما كانوا يصنعون ويبيّتون وفيه بالعذاب العاجل والآجل يبشرون.

ولقد عرضت مفهوم الدلالة السياقية في مدخل البحث الّذي حاولت فيه تبيان مفهوم الدلالة في الدّرس اللّغوي، بدأت بتعريف الدلالة ونشأتها وأنواعها وإبراز جهود العلماء والمدارس العربية والغربية واهتمامها بالمعنى، ثم الحديث عن أهمية الدلالة.

وبعد المدخل مبحثان؛ تطرقت في الأوّل إلى مفهوم النّفاق وصفات المنافقين، وفي الثاني تحليل دلالي لأوصاف المنافقين في القرآن بعد عرض الآيات وتفسيرها.

وفي الخاتمة ذكرت ما توصلت إليه كون هذا الداء الذي يهدد ويهاجم مناعة المسلمين ويتحين فرص ضعفهم واختلافهم وغفلتهم لكي لا تقوم لهم قائمة في كل الميادين مستعملا كل الأساليب، وبعد تشخيص المرض من خلال تلك العينات التي كانت في بدايات الدعوة والتي شكلت خطرا والحقت ضررا بالإسلام والمسلمين، كانت بمثابة النتائج التي توصلت إليها من خلال إسقاطها على واقعنا والذي تغيرت فيه الوسائل والآليات وكذلك الزمان والمكان إلا أنه لم يتغير في أهل النفاق نفاقهم

فهدفهم تحقيق مصالحهم، فوصفت لهذا دواء اخاله نافعا وحلا اراه ناجعا وفعالا يمكن من التصدي لهذا الوباء الخطير.

وقد اعتمدت في بحثي هذا مؤلفات مختلفة مع المصحف الشريف رواية حفص عن عاصم وأهم هاته المؤلفات:

تفسير ابن كثير.

تفسير الكشاف للزمخشري.

علم الدلالة لأحمد مختار.

صفات المنافقين لابن القيم علم اللغة العام للرديني.

ولقد كان الأستاذ عبد الله وايني نعم المشرف والمشرّف فلقد أذكى شعلة البحث وأنار الدرب بتوجيهاته وحرصه على دراسة ومعالجة مواضيع تنطلق من تدبر كتاب الله عز وجل وفهم معاني آياته في دراسة لغوية وسياقية حتى يعم نفعها الفرد والمجتمع.

مدخل: الدرس الدلالي في الدراسات اللغوية

1ـــ1) مفهوم الدلالة:

لغة: قال ابن فارس: (الدال واللام إبانة الشيء بأمارة تتعلمها والآخر: اضطراب في الشيء فالأول قولهم: دللت فلانا على الطريق والدّليل: الأمارة في الشيء وهو بيّن الدَّلالة والدّلالة) [1]

وفي اللسان: (ودلّه على الشيء يدلُّه دلّا ودلالة فاندلّ: سدّده إليه

والدّليل: ما يستدل به ' والدّليل: الدّال، وقد دلّه على الطريق يدلّه دَلالة ودلالة ودلولة

والفتح أعلى والدّليل والدُّلّيْلى: الذي يدلّك)[2].

اصطلاحا: (هي دلالة الألفاظ على معانيها الموضوعة بإزائها كدلالة السماء والأرض والجدار على مسمياتها أو هي المباحث المتعلقة بمعاني الألفاظ)[3].

«وعلم الدلالة فرع من فروع اللغة وهو غاية الدراسات الصوتية والصرفية والنحوية والقاموسية، إنه قمة هذه الدراسات»[4].

وأورد السيد "الجرجاني" في تعريفاته كلاما جامعا عنه في الثقافة الأصولية فيقول: {الدلالة هي كون الشيء بحالة يلزم من العلم به العلم بشيء آخر والشيء الأول هو الدال والثاني هو المدلول} وكيفية دلالة اللفظ على المعنى باصطلاح علماء الأصول محصورة في عبارة النص ولإشارة النص ولاقتضاء النص[5].

أما عن المحدثين فقد عرف أحدهم علم الدلالة بأنه: (العلم الذي يدرس المعنى أو دراسة المعنى) أو (ذلك الفرع من علم اللغة الذي يتناول نظرية المعنىِ)

أو (ذلك الفرع الذي يدرس الشروط الواجب توافرها في الرمز حتى يكون قادرا على حمل المعنى).[6]

---

[1] مقاييس اللغة(دل) (259/2) لابن فارس تح عبد السلام هارون، دار الفكر، ط 1399ه/1979م

[2] لسان العرب(دلل) (399/1) وما بعدها لابن منظور، دار الحديث، ط 1427ه/2006م

[3] علم اللغة محمود السعران ص261

[4] نفسه

[5] علم اللغة العام محمد علي عبد الكريم الرديني ص239، دار الهدى، ط2009

[6] علم الدلالة أحمد مختار عمر ص11، علم الكتب

1ــ2) نشأة علم الدلالة:

تُعدّ اللغة من أبرز وسائل التواصل بين أفراد الجماعة اللغوية، إذ تخضع دلالات الألفاظ والتراكيب لما اتفق عليه أفراد هذه الجماعة من أعراف وتقاليد لغوية. وقد حظيت هذه العلاقة بين اللفظ والمعنى باهتمام كبير من قِبل الباحثين والمفكرين، وسنعرض أبرز ما قيل بشأن هذه الظاهرة اللغوية في سياق تاريخي.

1-2-1 عند اليونان:

"تناول الفلاسفة اليونانيون مسألة العلاقة بين اللفظ ومدلوله، وكان أفلاطون من أبرز من تطرقوا إلى هذه القضية في محاوراته المنسوبة إلى أستاذه سقراط، حيث تبنّى أفلاطون الرأي القائل بوجود علاقة طبيعية وذاتية بين اللفظ ومعناه. وذهب إلى أن هذه العلاقة كانت في بدايتها واضحة وسهلة الفهم، لكنها تطورت بمرور الزمن، مما جعل من الصعب إدراكها أو تفسيرها تفسيراً مباشرًا. في المقابل، كان أرسطو من أنصار الرأي المخالف، إذ رأى أن العلاقة بين اللفظ والدلالة علاقة اصطلاحية قائمة على التواضع والعرف بين الناس"[1].

1-2- 2عند الهنود:

"ناقش المفكرون الهنود عدداً من القضايا المتعلقة باللغة، كان من أبرزها:

1-2-2-1 نشأة اللغة:

تباينت الآراء حول أصل اللغة؛ فذهب بعضهم إلى أنها قديمة وأصلها إلهي، فهي هبة من الله وليست من صنع الإنسان، بينما رأى آخرون أنها من اختراع الإنسان، وأنها ثمرة لنشاطه الفكري وتجربته في التواصل.

1-2-2-2 العلاقة بين اللفظ والمعنى:

تعددت وجهات النظر حول طبيعة العلاقة بين اللفظ والمعنى. فأنكر بعض المفكرين وجود تباين بينهما، معتبرين أن الكلمة جزء لا يتجزأ من الشيء ذاته، كما أن الطين يُعدّ المادة الأساسية لكل ما هو

[1] -ينظر، المرجع السابق، ص11.

ترابي. في المقابل، أقرّ آخرون بوجود علاقة قديمة، أو فطرية، أو طبيعية بين اللفظ والمعنى. وشبّه بعضهم هذه العلاقة بما بين النار والدخان من لزوم. وهناك من رأى أن العلاقة بين اللفظ والمعنى ليست ذات أصل طبيعي، بل هي علاقة حادثة نشأت بإرادة إلهية)1.

1-2-2-3 (أنواع الدلالات للكلمة):

- قسم يدل على ذات(محمد). ـــ قسم يدل على مدلول عام أو شامل(رجل).
- قسم يدل على كيفية (طويل). ـــ قسم يدل على حدث(جاء)

1-2-2-4 مسائل متفرقة:

أشار الهنود الى كثير من النقاط التي مازال يعترف بها علم اللغة الحديث مثل:

ـــ أهمية السياق في إيضاح المعنى

ـــ وجود الترادف والمشترك اللفظي كظاهرة عامة في اللغات.

ـــ دور القياس والمجاز في تغيير المعنى).[2]

1-2-3 عند العرب القدامى

مما لا شك فيه أن جهودا عربية بذلت لتحافظ على ما تؤديه اللغةـــ لغة القرآن ـــ من معان فهما وتفسيرا ولتحفظها من اللحن، يذكر ذلك احمد مختار عمر في كتابه علم الدلالة قائلا:

«وكان البحث في دلالة الكلمات من أهم ما لفت اللغويين العرب وأثار اهتمامهم. وتعد الأعمال اللغوية المبكرة عند العرب من مباحث علم الدلالة مثل تسجيل معاني الغريب في القرآن الكريم، ومثل الحديث عن مجاز القرآن، ومثل التأليف في الوجوه والنظائر في القرآن، ومثل انتاج المعاجم الموضوعية ومعاجم الألفاظ. وحتى ضبط المصحف بالشكل يعد في حقيقته عملا دلاليا لأن تغيير الضبط يؤدي إلى تغيير وظيفة الكلمة، وبالتالي إلى تغيير المعنى. ولعلنا في هذا المقام يكفينا التمثيل بسبب وضع النحو

[1] ينظر: المرجع السابق، ص11.

1 نفسه

حين لحن قارئ في آية قرآنية: أن الله بريء من المشركين ورسوله ـ بجر رسوله ـ بدلا من ضمها، مما أدى إلى أن يبرأ الله من رسوله بدلا من أن يكون الرسول هو البريء من المشركين»[1].

ويذكر أن جهود العرب واهتماماتهم قد تنوعت بعد ذلك لتغطي جوانب كثيرة من الدراسة الدلالية منها:

1-2-3-**اهتمامات اللغويين** التي تمثلت فيما يأتي:

- محاولة ابن فارس الرائدةـ في معجمه المقاييس ـربط المعاني الجزئية للمادة بمعنى عام يجمعها.
- محاولة الزمخشري الناجحةـ في معجمه أساس البلاغةـ التفرقة بين المعاني الحقيقية والمعاني المجازية.
- محاولة ابن جني ربط تقلبات المادة الممكنة بمعنى واحد كقوله: « وأما ك ل م فهذه أيضا حالها. وذلك أنها حيث تقلبت فمعناها الدلالة على القوة والشدة
- البحوث الدلالية التي امتلأت بها كتب مثل: المقاييس لابن فارس ـ الصاحبي في فقه اللغة لابن فارس ـ الخصائص لابن جني ـ المزهر للسيوطي

1-2-3-2 **اهتمامات الأصوليين وعلماء الكلام والفلاسفة المسلمين** التي تمثلت فيما يأتي:

عقد الأصوليون أبوابا للدلالات في كتبهم تناولت موضوعات مثل:

دلالة اللفظ ـ دلالة المنطوق ـ دلالة المفهوم ـ تقسيم اللفظ بحسب الظهور والخفاء ـ الترادف ـ

الاشتراك ـ العموم والخصوص ـ التخصيص والتقييد. وهناك بحوث كثيرة تحدثت عن الجهود اللغوية لعلماء الأصول مثل بحث« صلة علم الأصول باللغة ...»[2]

1-3 **أنواع الدلالة:** قسم العلماء الدلالة بحسب مصدرها أربعة أنواع:

1-3-1 **الدلالة الصوتية:** «يراد بها مقابلة أصوات الالفاظ ، او بعض حروفها او صورتها اللفظية مما يشاكل معناها، ففي العربية تتمثل مقابلة أصوات اللفظ المشاكل للمعنى في الكلمات الموضوعة ، كحكاية الأصوات مثل قهقهة (حكاية صوت الضحك) ، وغاق (حكاية صوت الغراب) ، واكتشف

1 علم الدلالة أحمد مختار عمر

2 علم اللغة العام محمد علي عبد الكريم الرديني، دار الهدى، ط 2009م

العلماء في طائفة من الألفاظ العربية صلة بينها وبين معانيها ، وذهبوا إلى أن العربي بطبيعته كان يربط بين الصوت والمعنى فيختار لكل لفظ حرفا ذا صفة تشاكل معناه وتناسبه من حيث القوة والضعف ومن ذلك كلمتا (الخضم) و(القضم) فكلاهما للأكل، ولكنهما اختلفا في حرف واحد واختيرت الخاء الرخوة للخضم لأن من معانيه أكل الشيء الرطب كالقثاء فناسب الخاء»[1].

1-3-2 الدلالة الصرفية: «وهي ما تدل عليه بعض الصيغ الصرفية للأفعال ففي العربية نجد صيغ الأفعال الثلاثية (الماضي، المضارع، الامر) تدل على الحدث وزمانه، والمزيد فيها والتوكيد واللواحق كثيرا ما ترتبط فيها بمعنى. من ذلك تضعيف العين في (فعّل)فإنّه يدل على التكثير غالبا، وفي نحو (اغدودن) يدلّ على المبالغة، ومنها زيادة السين والتاء في (استفعل) فإنهما يدلّان على الطلب غالبا، وصيغ الأسماء تحمل العديد من المعاني التي تتنوع بتنوعها كأسماء الفاعلين، والمفعولين وصيغ المبالغة، وأسماء الزمان والمكان، والتصغير والنسب، والجموع فلكل منها معنى يؤدّيه»[2].

1-3-3 الدلالة النحوية : «يقصد منها الدلالة التي تكتسبها الجملة أو الجمل عن طريق القواعد النحوية القاضية بترتيب الألفاظ وفق المعنى المراد ،فترتيب الكلمات والعبارات محكوم بقواعد ونظم تختلف من لغة لأخرى فإذا قلنا مثلا:(رصد علماء العربية الكثير من الظواهر الدلالية) فهذه الجملة لها معنى خاص، فإذا تغير ترتيب الكلمات فيها فقلنا :(علماء رصد العربية القدامى من الكثير من الظواهر) لأدى ذلك الى فساد المعنى ولذا يشترط علماء النحو أن يجري ترتيب الكلمات بحسب ما رسموه من قواعد فلا يخل المتكلم بشيء منها حتى لا يؤدي الى غموض عباراته او فساد تراكيبه ، وقد عولجت صلاحية التراكيب وسقمها في (علم البلاغة) الذي وضع القوانين الضابطة »[3].

1-3-4 الدلالة المعجميّة: «هي الدلالة الأساسية التي تكتسبها الألفاظ عن طريق الوضع اللغوي، وتسمى (الدلالة الاجتماعية)»[4].

«وقد تكفلت معجمات اللغة ببيان هذه الدلالة، ففيها بيان معاني الالفاظ العربية، والمولدة والمصنوعة والدخيلة، وقد يكون للعرف مدخل في مدلول بعض الكلمات كالألفاظ التي تغير مدلولها، أو اخترعت في اللغة العامية، فإننا نجد بعض الكلمات لها في الفصحى مدلول وفي العامية مدلول

---

[1] – المرجع السابق، 209.

[2] نفسه ص209

[3] ينظر علم اللغة بين القديم والحديث ص200، 201

[4] دلالة الألفاظ إبراهيم أنيس ص48

آخر، فكلمة (عالة) مدلولها في الفصحى جمع عائل (فقير) ومدلولها في العامية من يتكفل به غيره في أكثر شؤونه»[1].

«ولعل من أبرز مايتضح به معنى الكلام هو المقام الذي قيل فيه ولعل مدحا أريد به ذما أو تهكما فيكون من الضروري إدراك الموقف والسياق المصاحب للكلام ولعل هذا يتجلى من خلال ما يعرف بالدلالة السياقية: لتحديد المقصود من هذا النوع من الدلالة، ينبغي أولا توضيح معنى السياق، وهو الغرض الذي سيق لأجله الكلام، ويطلق البلاغيون على ذلك النوع الحال او المقام كما يطلق أيضا على المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغوية، أي ما يسبقها من الكلام وما يلحقها وهذا الأخير يسمى السياق اللغوي والأول يسمى سياق الموقف ف (الدلالة السياقية) تشير الى ذلك الترابط بين عناصر الجملة وهو ما يشكل بنية اللغة بل إن مفهوم الدلالة السياقية يتسع ليشمل الجمل التي تكون النص...»[2]

«ولقد اعتنى البلاغيون القدامى بظاهرة السياق ولعل أبرزهم "السّكاكي "(626ه) الّذي جعل من فكرة مقتضى الحال أساسا لمعرفة قصد المتكلم من خطابه ... ففكرة مقتضى الحال أو المقام أو السياق عموما بما يضمه من صفات المتكلم وعاداته ومقاصده وإشاراته الجسمية وكذا السامع وصفاته وعاداته ومستواه والزمان والمكان ...»[3]

«...وهذا أكثر ما نراعيه في حياتنا اليومية، فعندما تخبر عن أحد زملائك بأنه (أبدع في إجابته اليوم) وانت تعلم من حال المتكلم عنه انه طالب كسلان، فإنك تستبعد المعنى المباشر عن دائرة توقعاتك وتبدأ بالبحث عن تأويل يتناسب مع حال المتكلم عنه هذه، ولذا غالبا ما يحمل هذا الأسلوب على سبيل السخرية أو عدم التصديق ...»[4] .

ويضيف عرفات فيصل المناع مبينا الجوانب الثقافية المهمة في تأدية الكلام للمعنى الذي يريده صاحبه ودورها كذلك في الفهم والتفسير لدى المتلقي:

[1] علم اللغة العام محمد عبد الكريم الرديني ص221

[2] – مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، سهام ابراهيم الرزوق، علم الدلالة الحديث (نشأته، أنواعه، مدارسه ومصطلحاته)

[3] – مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري ــ جامعة بسكرة ــ الجزائرــ العدد التاسع 2013م

[4] – السياق والمعنى، دراسة في أساليب النحو، عرفات فيصل المناع، منشورات الاختلاف الجزائر، ط1ــ2013م ص89

«وللسياق الثقافي دور كبير في توضيح دلالة بعض الأساليب النحوية التي قد تشكل على متلقيها، منها ما يكتسبها الفرد في المجتمع على ثقافة البيئة التي تتمثل في العادات والتقاليد والأعراف المكتسبة والثقافة الدينية التي يكتسبها الفرد على اختلاف ديانته من الكتب السّماوية والأنبياء والرسل»[1].

«الثقافة البيئّية: مثال: ... وهذا ما يفسر لنا سرّ غضب بطانة الخليفة العباسي من قول الشاعر البدوي علي بن الجهم في مدح الخليفة المتوكل إذ يقول:

أنت كالكلب في حفاظك للودّ   وكالتّيس في قراع الخطوب

أنت كالدّلو لا عدمناك دلوا   من كبار الدّلاء كثير الذّنوب »[2]

«فتأثير البداوة واضح جدا إذ استعمل الألفاظ التي اعتاد عليها في بيئته ...ولولا فطنة الخليفة وذكاؤه لما استطاع أن يدرك أن ألفاظ الشاعر هي انعكاس لبيئته ... ولما أمر له بدار حسنة على شاطئ دجلة فيها بستان حسن يتخلله نسيم لطيف يغذي الأرواح، والجسر قريب منه، وأمر له بالغذاء اللطيف أن يتعاهد به فكان ــ أي علي بن الجهم ــ يرى حركة الناس ولطافة الحضر، فأقام ستة أشهر على ذلك ثم استدعاه الخليفة بعد مدة لينشده[3] فحضر وأنشد»[4]:

عيون المها بين الرصافة والجسر   جلبن الهوى من حيث أدري ولا أدري

أعدن لي الشوق القديم ولم أكن   سلوت ولكن زدت جمرا على جمر

سلمن وأسلمن القلوب كأنما   تشكّ بأطراف المثقفة السمر

فعلق المتوكل لما سمع عذوبة ألفاظه الجديدة: لقد خشيت عليه أن يذوب رقة ولطافة

الثقافة الدينية: تعمل الثقافة الدينية على توجيه فهمنا في كثير من الأساليب النحوية إلى معنى من المعاني المختلف فيها ... يقول سيبويه في باب سماه (باب من النكرة يجري مجرى المعرفة من

---

1 –نفسه ص93

2– ينظر ديوانه ص78

3 – السياق والمعنى ص93

4– ينظر ديوانه ص253

المصادر والأسماء) إذ تحدّث عن أسلوب الدّعاء، وعندما جاء إلى قوله تعالى: {ويل يومئذ للمكــذبين} وقوله تعال: {ويل للمطففين}.

أنكر أن يكون هذا الأسلوب دعاء من الله سبحانه وتعالى، لأن الدعاء فيه معنى الاستجداء ولا يصدر إلا ممن هو عبد ضعيف يتنافى وقدرة الله سبحانه وتعالى القادر على كل شيء» [1]

1- الدلالة عند المحدثين

2-1- المدارس اللسانية الغربية:

2-1-1- المدارس اللسانية الأوربية:

2-1-1-1-«المدرسة البنيوية التقليدية (مدرسة جنيف): يعد دوسوسير هو مؤسس المنهج البنيوي الذي خرج منه علم اللغة المعاصر وتتمحور النظرية في وصف اللغة بأنها عبارة عن نظام أو هيكل مستقل عن الظروف الخارجية المحيطة به، وينظر إليه من خلال ما يكونه من الداخل كوحدة كلية قائمة بذاتها وهي أشبه برقعة الشطرنج كل قطعة منها تتحدد قيمتها بموقعها وبعلاقتها الداخلية التي تربطها فيما بينها »[2].

«ومن أهم أفكار دوسوسير البنيوية:

حلل دوسوسير الرمز إلى مكونيه الدال الذي هو الجانب الصوتي المادي من الرمز ويمثل الصوت حالة اللغة المحكية أو الحرف المكتوب في حالة اللغة المكتوبة، أما المدلول فهو الجانب الذّهني وهولا يشير إلى شيء، بل إلى الصورة الذهنية أو الفكرة عن الشيء.

ميّز بين اللغة والكلام، اللغة هي النظام النظري الذي يضم قواعد اللغة أما الكلام فهو بمثابة التحقق العيني لتلك القواعد.

ميّز بين محورين لدراسة اللغة، المحور التتابعي والتزامني، المحور التزامني هو الذي يدرس اللغة على اعتبار أنها نظام يؤدي وظيفته في لحظة ما دون اعتبارات للزمن، وأما المحور التتابعي فهو يدرس اللغة باعتبارها نظام يتطور عبر الزمن ويرصد التغيرات التي تطرأ على اللغة تاريخيا.»[3]

---

[1] – المرجع السابق

[2] مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية، سهام إبراهيم الرزوق، علم الدلالة الحديث (نشأته، أنواعه، مدارسه ومصطلحاته)

[3] المرجع السابق

2-1-1-2 "المدرسة الوظيفية (مدرسة براغ): ظهرت حلقة براغ للوجود ابتداء من عام 1926م ومن أبرز أعلامها "رومان جاكبسون" و"نيقولاي تروبسكوي" واتفق رواد حلقة براغ الألسنية على جملة من المبادئ أهمها:

ـ تتصور هذه المدرسة اللغة باعتبارها نظاما وظيفيا من العلامات يرمي التي تمكن الإنسان من التعبير والتواصل.

ـ استفاد "تروبتسكوي "من ثنائيات "دوسوسير" (اللغة والكلام) و(الدال والمدلول) و(الآنية والتاريخية) لدراسة الأصوات من منظور جديد وميز البراغيون اللغة من جانبها الصوتي مميزين جانبين في الصوت: ـ كونه ظاهرة فيزيائية سمعية وـ كونه عضوا في نسق المنظومة.

ـ اعتمدت هذه المدرسة بالإضافة إلى المنهج الوصفي على المنهج المقارن في البحث اللساني.

ـ نظرية وظائف اللغة: تعتبر وظائفها الست من أهم ما جاء به "جاكبسون" من خلال أبحاث نظرية التواصل، وبناء على ذلك حدد العوامل التي تؤثر في سيرورة الحدث اللغوي (التواصل) بواسطة اللغة وهي: ـالمرسل ـ المرسل إليه ـالرسالة ـ الشفرة ـ الاتصال ـ السياق.[1]

وعليه فإن وظائف اللغة تبنى على هذه العوامل وهذه الوظائف هي:

ـ الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية: إذا كان تركيز الرسالة منصبا على المرسل.

ـ الوظيفة الشعرية: هي العلاقة بين الرسالة وذاتها باعتبارها حاملة للمعنى.

ـ الوظيفة الإنتباهية: تهدف إلى تأكيد الاتصال وتثبيته أو إيقافه.

ـ الوظيفة الإفهامية: ترتبط بالمرسل إليه (المتلقي).

ـ الوظيفة المرجعية: هي قاعدة لكل اتصال، لأنها تحدد العلائق القائمة بين الرسالة وبين موضوع يرجع إليه.

ـ وظيفة ما وراء اللغة: تسمى اللغة الواصفة فهي تملك كفاية تفسيرية قادرة على وصف اللغة نفسها

[1] نفسه

وتعتبر الصفة المميزة لمدرسة براغ اللغوية هي أنها نظرت إلى اللغة في جانبها الوظيفي، إن أعضاء مدرسة براغ نظروا إلى اللغة على أنها تعمل ككل من أجل خدمة الهدف وهي الحقيقة التي تميزهم عن غيرهم، لأنهم حللوا لغة معينة بصورة تبين الوظائف الخاصة التي تقوم بها المكونات البنيوية عند استعمال اللغة الكلية

2-1-1-3-«المدرسة النسقية (مدرسة كوبنهاغن): أعلنت هذه المدرسة عن نفسها في مؤتمر لغوي عقد عام1953 م وتصدر هذه الحلقة لغويان لويس هيلمسليف وهانر أولدن اللذان اتخذا من الكلمة الإغريقية gloss ومعناها العلاقة مصطلحا يحدد اتجاه هذه المدرسة.

تعد المدرسة الهيلسليفية امتدادا لأفكار دوسوسير البنيوية

ركز هيلمسليف على الجانب الشكلي للمحتوى والتعبير مهملا للمادة أي الأصوات مادامت لا تحدد النظام اللغوي، ومن هنا فالدليل اللغوي عنده هو ما تضمن إشارة إلى شكل التعبير وشكل المحتوى وبذلك وسع مفهوم الدليل اللساني لدوسوسير، نظر إلى اللغة على أنها شكل لا مادة مبعدا الجوانب الصوتية والدلالية الأخرى عن مجال الدراسات اللسانية»[1].

2-1-1-4-المدرسة السياقية (مدرسة لندن): عرفت مدرسة لندن بالنظرية السياقية وكان زعيم هذا الاتجاه "فيرث " الذي أكد تأكيدا كبيرا على الوظيف الاجتماعية للغة، ولقد انصب اهتمام فيرث الصوتيات الوظيفية وعلم الدلالة أو ما يعرف بالنظرية السياقية ...

وتحديد المعنى استنادا إلى السياق وفق فيرث يتطلب معرفة ما يأتي:

- المكان الذي تتم فيه عملية الكلام.
- الزمن.
- الأشخاص المشاركين في الكلام.
- وظيفة الخطاب والغاية المقصودة منه.

وقد صنف فيرث السياق صنفين سياق لغوي...وسياق الحال أو المقام.

[1] المرجع السابق

2-1-2 المدارس اللسانية الأمريكية

2-1-2-1 المدرسة البنيوية الأمريكية(الوصفية):

لقد كان "فرانز بواز" هو أول مؤسس للسانيات الحديثة الوصفية في أمريكا، وذكر في مقدمة كتابه "دليل اللغات الهندية الأمريكية " موجزا للمنهج الوصفي الذي اتبعه في دراسة اللغة ...وعلى الرغم من أهمية الآراء التي تضمنها كتاب "فرانز بواز" هذا إلا أن الأب الحقيقي لعلم اللغة الأمريكي في القرن العشرين "إدوارد سابير" ومن أهم المبادئ التي ميزت نظرية سابير ما يلي:

ــ لقد فرق سابير بين نظام اللغة الفيزيائي (الكلام) ونظامها المثالي ويعد هذا التنظيم المثالي (المبدأ الحقيقي والأكثر أهمية في حياة اللغة نفسها)

ــ يحتوي النظام المثالي للغة في مستواه الصوتي على عناصر العلاقات ووظائفها وإن هذه العناصر هي التي تكون اللغة وتباين بينها.

- كل لغة ذات نظام مثالي، تحلل الواقع وتفرض ذلك النهج (أي التحليل) على كل الأشخاص الذين يتكلّمونها، قصد تحقيق تواصلهم الاجتماعي وبذلك تكون قد أسست فكرهم
- إن اللغة وسيلة لتكوين الفكر ... ــ إن النماذج اللسانية عليقة بالنماذج الثقافية الاجتماعية[1]

منهج سابير في التحليل:

- دراسة الأشكال اللغوية دراسة تحليلية تصنيفية دون تصورات مسبقة ودون إقحام أنماط من لغات أخرى
- تعد الأشكال من أهم مظاهر اللغة ولكنه لا يتناولها بكيفية مستقلة عما تؤديه من وظيفة.
- رفض سابير الاعتماد على التقسيم التقليدي لأقسام الكلام في الدراسات الوصفية للغات الأمريكية الهندية.

رأى بأن لكل لغة أقسامها الخاصة وأنماطها المميزة.

- تملك كل لغة أصوات ومفردات وبنى تكيفها لتلبية حاجياتها[2]

---

[1] المرجع السابق

[2] نفسه

2-2-1-2 المدرسة التوزيعية (السلوكية):

«... المعنى اللغوي على أساس النظرية السلوكية التي تعتمد في بحوثها على تصرفات الإنسان وسلوكه في المواقف المختلفة، مع الاهتمام بعنصري الإثارة ورد الفعل أو الإستجابة...»[1]

«يعد الممثل الأساسي للمدرسة الوصفية الأمريكية هو "ليونارد بلومفيلد" وهو الذي طبعها بطابع خاص (الطابع التوزيعي والسلوكي)، إن اللغة حسب بلومفيلد سلوك فيزيولوجي تسبب في حدوثه مثير معين ...

ولقد حرص بلومفيلد على جعل الدراسة اللغوية علمية تخضع للمنهج العلمي الذي سادت سماته آنذاك، وحرص على أن تكون الدراسة اللغوية مستقلة عن العلوم الأخرى، وفضل المنهج المادي في التحليل اللساني لأن المنهج الذهني لا يتفق مع الواقع اللغوي.

أسس نظريته:

ـ اعتماد المنهج العلمي الصارم والتمسك بأن علم اللغة علم وصفي لابد من الفصل فيه بين الدراسة اللغوية الوصفية والدراسة المعيارية وبطريقة أكثر وضوحا بين وصف القواعد والقوانين التي يعتمدها مستعملا اللغة فعلا وبين القواعد المعيارية التي يراها علماء اللغة مما يستلزم من مستعملي اللغة اتباعها ليصبح كلامهم أكثر دقة وحسنا.

ـ استقلالية العمل اللغوي العلمي عن غيره من العلوم ...

ـ كل عملية تخاطب تستلزم آليات ـ المتكلم...ـ الناقل...ـ المخاطب...

ـ العمل بحرص على تخليص البحث اللساني من المعايير الفلسفية وعدّ الظاهرة اللغوية سلسلة من المنبهات تعقبها استجابات تتحول بدورها إلى منبهات تقتضي استجابات يستدل عليها لمجادلته.

ـ النحو عنده علم تصنيفي لضبط الكلمات الأساسية في اللغة بحسب التتابع والتواتر فقط.[2]

وتعد المدرسة التوليدية التحويلية من أبرز المدارس الحديثة:

[1] علم اللغة العام محمد علي عبد الكريم الرديني ص251

[2] مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية

3-2-1-2 المدرسة التوليدية التحويلية:

إن النحو التوليدي بقيادة "تشومسكي" لم يعد محاكيا للنحو التقليدي المدرسي في المفهوم والاهداف، لأنه لا يرمي إلى تحديد المعايير التي تمكن المتكلم من استعمال لغته الأم استعمالا سليما دون أخطاء، بل إن النحو عنده هو مجموعة من القواعد الكامنة في ذهن المتكلم.

مبادئ النحو التوليدي:

ـ التوليد: يعد التوليد من أهم المفاهيم التي جاء بها النحو وتميز بها ويقصد به القدرة على الإنتاج غير المحدد للجمل انطلاقا من العدد المحصور للجمل ـ في كل لغة ـ وفهمها ثم تمييزها عما هو غير سليم نحويا، إن التوليد ليس الإنتاج المادي للجمل، بل هو القدرة على التمييز بين ما هو نحوي وغيره.

ـ الملكة والتأدية: هي المعرفة اللاواعية بقواعد اللغة التي يكتسبها المتكلم منذ طفولته ... إن هذه الملكة هي المتكلم السامع للغته، وأما التأدية فهي الاستعمال الفعال للغة.

ـ الإبداعية: هي استعمال لنظام اللغة استعمالا ابتكاريا لا مجرد التقليد السلبي لقواعده، وعليه فالتوليد عملية إبداعية تميز الانسان عن بقية المخلوقات.

ـ النحوية: إن الهدف الأساسي للنحو التوليدي التحليلي هو التمييز بين الجمل النحوية البسيطة وبين الجمل المنحرفة عن قواعد النظام اللغوي الضمني والواجب ابعادها عنه.

ـ الحدس: تلك المقدرة التي تسمح لمتكلم اللغة الأم بالتمييز بين الجمل النحوية الصحيحة والفاسدة، هي حدس المتكلم، إن هذا الحدس يعد جزءا من الملكة اللسانية، أي هو جزء من معرفته الضمنية بقواعد اللغة.

ـ ظاهرة الغموض: ترتبط تلك الظاهرة بالمجانسة في البناء، فالجملة الواحدة قد يكون لبنائها الخارجي معنيان متمايزان، هذا الأمر هو الذي دفع تشومسكي إلى البحث عن البنية الأصلية للتركيب النحوي لكل جملة منطوقة أو مكتوبة، وبذلك استيعاب معناها.[1] هذا عن التوليد وفيما يلي بيان مفهوم التحويل:

«مفهوم التحويل: إن التحويل عملية نحوية تربط بين تمثيلين، تمثيل أولي مجرد وهو البنية العميقة وتمثيل مشتق نهائي هو البنية السطحية، والربط بين التركيب الظاهري والباطني هو التحويل.

---

[1] المرجع السابق

إن النحو التوليدي لا يكون تحويليا إلا بشرطين:

- تمييزه بين البنية العميقة والسطحية للجملة.
- اشتماله على نوعين القواعد هما قواعد نسقية وقواعد تحويلية»[1].

2- أهمية الدلالة

«...والكلمة مبنى ومعنى لكل منهما سماته وخصائصه التي بها نستطيع أن نتعرف على الكلمات. فالمبنى يدرس في الصوت، والمعنى يدرس في المباحث الدلالية، والاهتمام بالمعنى جزء هام من أجل تكامل دراسة اللفظة، فإذا كانت الكلمات لفظا ومدلولا ومعنى، فإن المعنى – إذن – علاقة متبادلة بين اللفظ والمدلول، علاقة تمكن كل واحد منها من استدعاء الاخر.

وهذه العلاقة التي سميت ب(المعنى)هي أساس عملية وضع الرموز اللغوية بجميع أشكالها و مستوياتها ، وإذا أخذ ذلك الاعتبار فإنه يمكن القول : إن فقدان معنى الكلمة يعني فقدان العلاقة بين الكلمة ومدلولها ، وإن فقدان هذه العلاقة يعني أن الكلمة فقدت محتواها الداخلي ، أي تلك الفكرة أو الصورة الذهنية التي يمكن أن تستدعيها ، و أصبحت ظرفا فارغا لا قيمة له ، وبهذا التحليل يصبح المعنى عنصرا جوهريا في كيان الكلمة بمفهومها اللغوي اللفظي الكامل ، بل تصبح قيمة الكلمة كما يشير جوزيف فندريس Vendryes، مرهونة بقيمتها المعنوية »[2].

على ضوء ما سبق «فإن ما ذكر عن أهمية اللفظ لا يمكن أن يفهم منه التعظيم من شأن الألفاظ، أو المفردات اللغوية وترجيحها، أو تقديمها على المعاني والأفكار، والاهتمام بالشكل دون المحتوى، لاسيما أنه قد تبين من قبل أن عناصر الكلام الأساسية هي الأصوات، أو الوحدات الصوتية، والكلمات المتكونة من هذه الأصوات أو الوحدات الصوتية، ثم الصيغ النحوية التي تربط وتؤلف بين الكلمات، لتؤدي هذه الكلمات وظيفتها في التعبير عما يدور في الذهن، أو في النفس من خواطر وتصورات وأحاسيس وانفعالات. إن الغرض الأصلي من وضع المفردات لمسمياتها، كما يقول فخر الدين الرازي: أن يضم بعضها إلى بعض ليحصل منها الفوائد المركبة، وهكذا جميع المفردات»[3]

[1] مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية
[2] علم اللغة العام للرديني ص215
[3] نفسه

ومن الواضح أن هذه المفردات لا يمكن أن يضم بعضها إلى بعض إلا بعد العلم بمعانيها – أي بمحتوياتها الداخلية – وبعد وجود الإدراك الكامل لكل أسرارها، وإلا تعذر تركيبها ونظمها وتأليف الكلام منها، فلا حال للفظة مع صاحبتها تعد إذا أنت عزلت دلالاتها جانبا، وأي مساغ للشك في أن الألفاظ لا تستحق من حيث هي ألفاظ أن تنظم على وجه دون وجه، ولو فرضنا أن تنخلع من هذه الألفاظ التي هي لغات دلالتها لما كان شيء منها أحق من شيء ولا يتصور أن يجب فيها ترتيب ونظم.

إذن فلا جدوى من لفظ بلا معنى، ولا من اسم دون مسمى، ولا من مصطلح دون مفهوم.

لأن الكلمة تكون كالشيء الجامد المعتم مالم تعبر عن موقف أو فكرة، وحتى لو كانت جميلة في ذاتها عذبة الجرس في نطقها، لا يكون لها شأن ألا بما تحمل من مضمون، لأن اللفظ الحسن بغير معنى كامرأة ميتة حسنة الصورة، كما يعبر ابن أبي الحديد"[1].

وعلى الرغم من كل ما سبق، فإن الجانب اللفظي يبقى مستقلا محتفظا بمكانته كأساس جوهري مهم في عملية التعبير وفي صياغة القول ملفوظا كان أو منطوقا، إذ أنه من المعلوم والبديهي أن المعاني والأفكار لا تبين ولا تظهر إلا بالألفاظ، فلا سبيل للمرتب لهذه المعاني، والجامع لشملها، كما يقول الجرجاني نفسه: أن يعلمك ما صنع في ترتيبها بفكره إلا بترتيب الألفاظ في نطقه.

وبذلك فلا قيمة للمعاني أو الأفكار دون الأدوات التي توصلها، أو تحملها وهي الألفاظ، كما أنه لا قيمة للألفاظ إذا لم تكن تؤلف بعضها مع بعض آخر تأليفا حسنا، لتدل على معان أو أفكار معينة، وتبين عن الغرض الذي استخدمت من أجله.

إن اللفظ على حد تعبير الهمذاني: زينة المعنى، والمعنى عماد اللفظ، ولكن مما يحمد من التأليف والنظم أن يكون كما قلت: تزين معانيه ألفاظه، وألفاظه زائنات المعاني، فإذا كانت الألفاظ مشاكلة للمعاني في حسنها، والمعاني موافقة للألفاظ في جمالها وانضاف إلى ذلك قوة من الصواب، وصفاء من الطبع، ومادة من الأدب، وعلم بطرق البلاغات، ومعرفة برسوم الرسائل والمكاتبات، كان الكمال.

والكلمة جانب هام وحياتي من جوانب اللغة فقد عبرت الأمثلة العربية القديمة والحكم عما للكلمة من أثر، فقد قيل: رب كلمة قالت لصاحبها: دعني وحين لم يدعها قتل، وقيل: رب قول أنفذ من صول.

---

[1] علم اللغة العام للروديني

والكلمة الطيبة أخمدت حرب داحس والغبراء التي دامت سنوات طويلة والإنسان محاسب في الإسلام على ما يقول، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر وعن معاذ أنه سأل النبي – صلى الله عليه وسلم – حين نصحه بكف لسانه، فقال: وهل نحن مؤاخذون بما نقول يا رسول الله؟! فقال – صلى الله عليه وسلم–: « ثكلتك أمك يا معاذ! وهل يكب الناس على وجوههم يوم القيامة إلا حصائد ألسنتهم؟ ».، ويضيف

« وتفرض الكلمة المنطوقة نفسها على أسماعنا أناء الليل وأطراف النهار، سواء في الشارع أو في البيت، أم في قاعات الدرس أم عن طريق الإذاعة المسموعة والمرئية، كذلك تلح الكلمة المكتوبة على أعيننا أينما ذهبنا، في الكتب والمجلات وفي الشارع على شكل لافتات وإعلانات. وللكلمات كيان مستقل في الكتابة والطباعة، كما تتمتع بذاتية ومكانة مستقلة في المعاجم، وهي فوق هذا وذاك تخضع في استعمالها لعدد لا يحصى من القيود والعادات، حتى إنها في كثير من الأحيان كانت موضع العبادة والتقديس، كما أحاطت بها أساطير وعادات ظرفية، وفي ذلك يقول ابن منظور (ت 711هـ): إن للكلمات أعملا عظيمة تتعلق بأبواب جليلة من أنواع المعالجات وأوضاع الطلسمات، ولها نفع شريف بطبائعها، ولها خصوصية بالأفلاك المقدسة وملائمة لها، ومنافع لا يحصيها من يصفها».[1]

وعلى الرغم من وضوح مفهوم الكلمة في أذهان كثير من الناس، إلا أن علماء اللغة المحدثين لم يلموا بهذا التصور للكلمة، فمن العلماء من يهتم بوظيفتها بوصفها وحدة المعنى، وعدها بلومفيلد Blomfield: أصغر صيغة حرة أي أنها أصغر وحدة كلامية قادرة على القيام بدور نطق تام، كما صرح بذلك بالمار.

ومن خلال ما تقدم نقول: إن القيمة الحقيقية للألفاظ هو أداء معنى، وتعبير عن إحساس وأفكار المتكلم واستجابة من السامع لهذا الكلام وفهم ما سمعه، دون أن يحقق هذا الإطار الحركي المتضمن وجود مدلول تدل عليه الألفاظ، فإن اللغة تكون عاجزة عن أداء وظيفتها، وهي التفاهم بين أفراد المجتمع الواحد المتلاغين بلغة واحدة.

إذن (تتوقف حياة الإنسان في كثير من القضايا على فهم النصوص فهما صحيحا ودقيقا، ففي ميدان السياسة والحقوق والقانون مجالات كثيرة للاختلاف على دلالة الألفاظ، وفي المعاهدات الدولية والاتفاقات التجارية والاقتصادية وفي ميدان الديـــن، وبخاصة الفقه الإسلامي تحتل النصوص موقفا

[1] علم اللغة العام للروديني ص 217

خاصا، ويتعلق على فهمها تحديد الأفكار في العقائد، والأحكام في قضايا المعاملات والعبادات، ويقع لذلك الاختلاف في فهم مراد الشارع، وتحديد معاني الألفاظ في القرآن والحديث.

وابن جني حينما خصص بابا (فيما يؤمنه علم العربية من الاعتقادات الدينية)، اعتبره من أشرف أبواب كتابه الخصائص، حيث يقول :(وذلك أن أكثر من ضل من أهل الشريعة عن القصد فيها، وحاد عن الطريقة المثلى إليها، فإنما استهواه ضعفه في هذه اللغة الكريمة الشريفة التي خوطب الكافة بها ...، وأصل اعتقاد التشبيه لله تعالى بخلقه منها، وجاز عليهم بها وعنها. وذلك أنهم لما سمعوا قول الله – سبحانه وعلا عما يقول الجاهلون علوا كبيرا –: {فأينما تولوا فثم وجه الله} الزمر 56، وقوله: {لما خلقت بيدي} ص75.

ويمكن أن (نضيف إلى ما تقدم عن تعلق فهم النصوص يبحث دلالة الألفاظ أن تذوق النصوص تذوقا سليما ، ومعرفة مواقع الألفاظ ، ومعرفة مواطن الجمال ، ومواضع الدقة و براعة القول فيها ، يمكن أن يعين على حصول ملكته و تنميتها ، الإطلاع على هذه المباحث اللطيفة من علم اللغة ، مباحث دلالة الألفاظ وما يكون للفظ من معان متعددة تتناوب في الظهور بحسب سياق الكلام ، و ما يلقيه الاستعمال من ظلال على اللفظ ، و ما يتعاقب عليه خلال العصور من معان ، وبذلك يعيين هذا الاطلاع من علوم اللغة النقد الأدبي على أداء وظيفته بما يمده من نظرات وفيرة في قوانين الألفاظ) "

«على أن البحث في معاني الألفاظ، لا تقتصر فائدته على مثل هذه الفوائد العملية والثمرات الأدبية فحسب، بل إن له مع ذلك نتائج علمية وقيمة نظرية، ذلك أنه طريق لكشف بعض الحقائق المتعلقة باللغة، وصلتها بأهلها بعقليتهم وبيئتهم وعاداتهم، فإن لغة من اللغات يتوقف بداهة على معرفة مفرداتها وتراكيبها، وليس من اليسير فهم مفردات، ومعرفة ما تنطبق عليه، وما يدخل في مدلولاتها وما لا يدخل فيه، وما أكثر ما ينخدع المرء بظاهر اللفظ في لغة من اللغات، حتى يدخل تحت هذا اللفظ ما لا يدخل فيه أهل تلك اللغة، أو أهل عصر بعينه»[1]

[1] علم اللغة العام للرديني ص 219

المبحث الأول: النفاق والمنافقون في القرآن الكريم

لم يكن مصطلح النفاق بمفهومه الحالي إلا بما دل عليه المعنى اللغوي المستمد منه قبل وروده في القرآن الكريم الذي كشف ما تضمره تلك الفئة المنافقة وبين أوصافهم وأصنافهم نعرض أكثرها بعد الوقوف على مفهوم النفاق وانواعه.

المطلب الأول: مفهوم النفاق وأنواعه

1- تعريف النفاق:

1ـ1) لغة: (نَفَقَ) النون والفاء أصلان صحيحان يدل أحدهما على انقطاع شيء وذهابه، والآخر على إخفاء شيء وانقطاعه ومتى حصل الكلام فيهما تقاربا[1].

والنفقة والنافقاء: جحر الضب واليربوع، وقيل: النفقة والنافقاء موضع يرققه اليربوع من جحره، فإذا أتي من قبل القاصعاء ضرب النافقاء برأسه فخرج. ونفق اليربوع ونَفَقَ وانتفق ونفّق: خرج منه وتنفقه الحارش وانتفقه: استخرجه من نافقائه[2]

وقيل إنما سمي المنافق منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه[3]

1ـ2) اصطلاحا: النفاق في الإسلام هو إظهار الإسلام وإبطان الكفر وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بهذا المعنى الخاص وإن كان أصله الذي أخذ منه في اللغة معروفا[4].

2- أنواع النفاق:

2-1 النفاق الأكبر(الاعتقادي): يذكر ابن القيم في حديثه عن صفات المنافقين أن للنفاق نوعان أكبر وأصغر وذلك في كتابه صفات المنافقين فعرف النفاق الأكبر: "... فلأكبر يوجب الخلود في النار في دركها الأسفل وهو أن يظهر للمسلمين إيمانه بالله وملائكته وكتبه واليوم الآخر وهو في الباطن منسلخ من ذلك كله مكذب به..."[5]

وذلك لأن هذا النفاق اعتقادي مخرج من دائرة الإيمان إلى الكفر كما جاء في كلام ابن تيمية ذكر بيان صفات هذا النوع من النفاق:" فمن النفاق ما هو أكبر، ويكون صاحبه في الدرك الأسفل من

---

1 مقاييس اللغة لابن فارس (ج5/ص454) دار الفكر ط1979م

2 لسان العرب لابن منظور (ج10/ص358) دار صادر بيروت، ط3 1414ه

3 نفسه ص359

4 المنافقون في القرآن الكريم، عبد العزيز بن عبد الله الحميدي، ط2(2009م) ص13

5 صفات المنافقين لابن القيم، المكتب الإسلامي، بيروت ط 1399ه

النار، كنفاق عبد الله بن أبي وغيره بأن يظهر تكذيب الرسول أو جحود بعض ما جاء به، أو بغضه، أو اعتقاد عدم وجوب اتباعه، أو المسرة بانخفاض دينه، أو المساءة بظهور دينه ونحو ذلك: مما لا يكون صاحبه إلا عدوا لله ورسوله. وهذا القدر كان موجودا في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم ومازال بعده، بل هو بعده أكثر منه على عهده لكون موجبات الإيمان، على عهده أقوى، فإذا كانت مع قوتها وكان النفاق معها موجودا فوجوده فيما دون ذلك أولى". [1]

فتتحدد للنفاق الاعتقادي ستة أنواع:

- تكذيب الرسول صلى الله عليه وسلم
- تكذيب بعض ما جاء به النبي صلى الله عليه وسلم.
- بغض الرسول صلى الله عليه وسلم.
- بغض بعض ما جاء به النبي صلى الله وسلم.
- المسرة بانخفاض دين رسول الله صلى الله عليه وسلم.
- الكراهية لانتصار دين الرسول صلى الله عليه وسلم.[2]

2-2 النفاق الأصغر(العملي): خمسة أنواع

"...والدليل قوله صلى الله عليه وسلم:(آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا أؤتمن خان) وفي رواية :(إذا خاصم فجر وإذا عاهد غدر)

صاحبه مؤمن لكن فيه خصلة من خصال المنافقين وهي خطيرة جدا إذا لم يتب منها".[3]

[1] موقع إسلام ويب، النفاق الأكبر وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية

[2] شبكة الألوكة الشرعية، إشراف سعد بن عبد الله الحميد مقال (أنواع النفاق) ،2014/06/01

[3] صفات المنافقين لابن القيم ص16

المطلب الثاني: أوصاف المنافقين في القرآن الكريم

ذكرت أوصاف المنافقين في القرآن الكريم على اختلافها تحذيرا من خطرهم، قال ابن القيم: (وقد هتك الله أستار المنافقين وكشف أسرارهم في القرآن، وجلى لعباده أمورهم ليكونوا منها ومن أهلها على حذر...لكثرتهم وعموم الابتلاء بهم)[1]

فكما هم أكثر الناس فهم أشدهم فتنة وخطرا على الإسلام والمسلمين، ولعل المقصود هنا هو النفاق الأكبر(الاعتقادي) في أنواعه الستة التي سبق ذكرها على أن النفاق الأصغر(العملي)

خطير جدا وقد يكون سببا للنفاق الأكبر وقد ذكر أوصافهم بما دلت عليه آيات الكتاب الكريم

1- إظهار الإيمان وإبطان الكفر: يصور ابن القيم المنافقين في مشهد يكشف ما تكنه تلك الفئة من عداوة، وهم مع ذلك يظهرون عكس ما يضمرون فقال فيهم:(لبسوا ثياب أهل الإيمان على قلوب أهل الزيغ والخسران، والغل والكفران ...فألسنتهم ألسنة المسالمين وقلوبهم قلوب المحاربين[2] ويقولون: (آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ)

2- الخديعة والمكر والكذب: فقال فيهم – أي ابن القيم –:(رأس مالهم الخديعة والمكر وبضاعتهم الكذب والختر وعندهم العقل المعيشي: أن الفريقين عنهم راضون، وهم بينهم آمنون) ثم يورد الآية الدالة على هذا الوصف :(يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ)2

3- في قلوبهم مرض: ... فلا هم قادرون على إعلان الإيمان الصريح الواضح، ولاهم قادرون على اعلان انكارهم للحق وسبب ذلك المرض الذي يتمكن من قلوبهم، فيحرفها عن طريق الإيمان[3]

(فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ

4- مفسدون يزعمون الإصلاح: ... (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ)

لكن الله فضح حقيقتهم... (أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ)

5- سفهاء زائفون: ... (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء ألا انهم هم السفهاء .....)

---

[1] المرجع السابق
[2] نفسه ص19
[3] نفسه ص29

6- مخادعون متآمرون: ...متسترون بالإيمان، وأمام الكافرين وشياطين الإنس يخلعون ذلك الستار عن كاهلهم فيظهرون على حقيقتهم الخسيسة... (وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ)

7- تجارتهم خاسرة: قال ابن القيم:(خرجوا في طلب التجارة البائرة في بحار الظلمات، فركبوا مراكب الشبه والشكوك تجري بهم في موج الخيالات فلعبت بسفنهم الريح العاصف، فألقتها بين سفن الهالكين[1] (أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ) [البقرة:16]

8- غادرون لا عهد لهم: (وَمِنْهُم مَّنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِن فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ) [التوبة:75]

9ـ يتولون الكافرين ويتنكرون للمؤمنين (... زاعمين أن العزة عند الكافرين، فيسعون لها عندهم، لكنهم لن يجدوها إلا عند الله العزيز الجبار: {الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة فإن العزة لله جميعا) [النساء:139]

10- يتربصون بالمؤمنين: ... (الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين) [النساء:141]

11- يفرحون لما يصيب المؤمنين من سوء ومحنة: ... (إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا إن الله بما يعملون محيط.)[2] آل عمران :120

12- مرجفون: فليس لهم من هم عند المحن والشدائد إلا الإرجاف والتخويف وتثبيط العزائم ... (وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا) [الأحزاب:12]

13- يرفضون الحكم بما أنزل الله ويتحاكمون إلى الطاغوت: ...فهم يؤمنون بما أنزل الله عز وجل باللسان والمظهر فحسب لكنهم لا ينصاعون لحكم الله بل يصدون عنه ويحاربونه ويتخذون من قوانين البشر الوضعية دينا لهم يأتمرون بأمرها ويلتزمون بها لأنها وحدها تتوافق مع شرورهم ومصالحهم قال تعالى:(ألم تر إلى يزعمون أنهم ءامنوا بما أنزل إليك وما انزل من قبلك ...)

---

[1] صفات النافقين لابن القيم

[2] شبكة الألوكة

14- الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف: قال تعالى:(المنافقون والمنافقات بعضهم أولياء بعض ...)[1]

15- في أقوالهم حلاوة ولين وفي قلوبهم كذب ومين: قال فيهم ابن القيم:(يعجب السامع قول أحدهم لحلاوته ولينه، ويشهد الله على في قلبه من كذبه ومينه، فتراه عند الحق نائما وفي الباطل على الأقدام، فخذ وصفهم من القدوس السلام. (ومن الناس من يعجبك قوله في الحياة الدنيا.) ضف إلى حلاوة لسانهم حسن أجسامهم وأضاف ابن القيم في وصفهم: (أحسن الناس أجساما وأخلبهم لسانا وألطفهم بيانا وأخبثهم قلوبا وأضعفهم جنانا...) وهذا ما تدل عليه الآية الكريمة :(وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم وإن يقولوا تسمع لقولهم ...)

وذكر ابن القيم أوصاف أخرى للمنافقين منها: ـــ يؤخرن الصلاة عن وقتها الأول إلى شرق الموتى، هذه معاملتهم للخلق وتلك معاملتهم للخالق.

---

[1] صفات المنافقين لابن القيم

المبحث الثاني: دلالة أوصاف المنافقين في القرآن الكريم

سورة البقرة

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ٨ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ
إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ٩ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَـٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ
لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَـٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ١٣ وَإِذَا
لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَـٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ
وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ١٥ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَـٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَـٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ١٦
مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَـٰتٍ لَّا يُبْصِرُونَ ١٧
صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ١٨ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَـٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَـٰبِعَهُمْ فِىٓ
ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَـٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟
فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَـٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ٢٠ ﴾[سورة
البقرة,8-20]

جاء في الكشاف في تفسيرهذه الآيات:" افتتح سبحانه بذكر الذين أخلصوا دينهم لله، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ووافق سرهم علنهم وفعلهم قولهم، ثم بالذين محضوا الكفر ظاهرا وباطنا قلوبا وألسنة، ثم ثلث بالذين بالذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم وأبطنوا خلاف ما أظهروا وهم الذين قال فيهم: { مذبذبين بين ذلك لا هؤلاء ولا إلى هؤلاء }، [النساء 143]، وسماهم المنافقين، وكانوا أخبث الكفرة، وأبغضهم إليه وأمقتهم عنده، لأنهم خلطوا بالكفر تمويها وتدليسا، وبالشرك استهزاء وخداعا؛ ولذلك أنزل فيهم:{ إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار}.

ووصف حال الذين كفروا في آيتين، وحال الذين نافقوا في ثلاث عشرة آية، نعى عليهم فيها خبثهم ومكرهم، وفضحهم وسفههم، واستجهلهم واستهزأ بهم، وتهكم بفعلهم، وسجل بطغيانهم وعمههم، ودعاهم صما بكما عميا، وضرب لهم الأمثال الشنيعة، وقصة المنافقين عن آخرها معطوفة على قصة الذين كفروا كما تعطف الجملة على الجملة."[1]

ففي هذه الآيات أوصاف كثيرة ومختلفة تدل في مجملها على خبث وخطر هذه الفئة الكافرة:

---

[1] الكشاف جار الله أبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري (158/1) مكتبة العبيكات ط1 1998م

ــ المخادعة لله تعالى وللمؤمنين ومرض القلوب.

ــ الإفساد في الأرض بالكفر والمعصية والتردد والتذبذب.

ــ السخرية والاستهزاء بالمؤمن.

﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾[سورة البقرة,142-143]

«قِيلَ الْمُرَادُ بِالسُّفَهَاءِ هَاهُنَا: الْمُشْرِكُونَ؛ مُشْرِكُو الْعَرَبِ، قَالَهُ الزَّجَّاجُ. وَقِيلَ: أَحْبَارُ يَهُودَ، قَالَهُ مُجَاهِدٌ. وَقِيلَ: الْمُنَافِقُونَ، قَالَهُ السُّدِّيُّ. وَالْآيَةُ عَامَّةٌ فِي هَؤُلَاءِ كُلِّهِمْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ]. قَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا أَبُو نُعَيم، سَمِعَ زُهَيراً، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَلَّى إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُعْجِبُهُ أَنْ تَكُونَ قِبْلَتُهُ قِبَلَ الْبَيْتِ، وَأَنَّهُ صَلَّى أَوَّلَ صَلَاةٍ صَلَّاهَا، صَلَاةَ الْعَصْرِ، وَصَلَّى مَعَهُ قَوْمٌ. فَخَرَجَ رَجُلٌ مِمَّنْ كَانَ صَلَّى مَعَهُ، فَمَرَّ عَلَى أَهْلِ الْمَسْجِدِ وَهُمْ رَاكِعُونَ، فَقَالَ: أَشْهَدُ بِاللَّهِ لَقَدْ صَلَّيْتُ مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِبَلَ مَكَّةَ، فَدَارُوا كَمَا هُمْ قِبَلَ الْبَيْتِ. وَكَانَ الَّذِي مَاتَ عَلَى الْقِبْلَةِ قَبْلَ أَنْ تُحَوَّلَ قِبَلَ الْبَيْتِ رِجَالًا قُتِلُوا لَمْ نَدْرِ مَا نَقُولُ فِيهِمْ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ} انْفَرَدَ بِهِ الْبُخَارِيُّ مِنْ هَذَا الْوَجْهِ وَرَوَاهُ مُسْلِمٌ مِنْ وَجْهٍ آخَرَ»[1].

يتناول النص أقوال المفسرين في تفسير قوله تعالى: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ}، حيث تنوّعت الأقوال، فقيل إنهم مشركو العرب (الزجاج)، وقيل أحبار اليهود (مجاهد)، وقيل المنافقون (السدي)، والأرجح أن الآية عامة في الجميع. كما يذكر حديثًا رواه البخاري عن البراء رضي الله عنه، يبيّن فيه أن النبي ﷺ صلّى إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهرًا، ثم تحوّل إلى الكعبة، وكانت أول

[1] –ابن كثير (452/1).

صلاة صلّاها إلى الكعبة صلاة العصر، فبلغ الخبر باقي الصحابة فتحوّلوا أثناء الصلاة. وقد نزلت آية تطمئنهم على من مات قبل تحويل القبلة بأن الله لا يضيع إيمانهم.

«وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي إِسْمَاعِيلُ بْنُ أَبِي خَالِدٍ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُصَلِّي نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، وَيُكْثِرُ النَّظَرَ إِلَى السَّمَاءِ يَنْتَظِرُ أَمْرَ اللَّهِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} فَقَالَ رِجَالٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ: وَدِدْنَا لَوْ عَلِمْنَا عِلْمَ مَنْ مَاتَ مِنَّا قَبْلَ أَنْ نُصْرَفَ إِلَى الْقِبْلَةِ، وَكَيْفَ بِصَلَاتِنَا نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ} وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمْ أَهْلُ الْكِتَابِ: مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ} إِلَى آخِرِ الْآيَةِ»[1].

وبالرغم من أن تحويل القبلة لا يضرهم بشيء إلا أنهم سعوا لإثارة الشكوك والفتنة بين المسلمين عند تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، مع أن الأمر كان بوحي من الله. فقد كانوا يتساءلون بسفه وسوء نية: ما الذي غير وجهة المسلمين؟ بينما المؤمنون لم يشكوا في إيمانهم، بل تساءلوا عن حكم صلاتهم السابقة، فجاءهم الجواب الإلهي بأن الله لا يضيع إيمانهم. وهكذا يُبين النص ثبات المؤمنين مقابل خبث السفهاء، وهذا هو حالهم

«وقال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبُو زُرْعَةَ، حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَطِيَّةَ، حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ، عَنِ الْبَرَاءِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ صَلَّى نَحْوَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ سِتَّةَ عَشَرَ أَوْ سَبْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُوَجَّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ} قَالَ: فَوُجِّهَ نَحْوَ الْكَعْبَةِ. وَقَالَ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ، وَهُمُ الْيَهُودُ: {مَا وَلَّاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} فَأَنْزَلَ اللَّهُ {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم لَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ، أَمَرَهُ اللَّهُ أَنْ يَسْتَقْبِلَ بَيْتَ الْمَقْدِسِ، فَفَرِحَتِ الْيَهُودُ، فَاسْتَقْبَلَهَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُحِبُّ قِبْلَةَ إِبْرَاهِيمَ، فَكَانَ يَدْعُو اللَّهَ وَيَنْظُرُ إِلَى السَّمَاءِ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ} أَيْ: نَحْوَهُ. فَارْتَابَ مِنْ ذَلِكَ الْيَهُودُ، وَقَالُوا: مَا

[1]- السابق، (453/1).

وَلَّاهُم عَنْ قِبْلَتِهِمُ التي كَانُوا عَلَيْهَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}

وَقَدْ جَاءَ فِي هَذَا الْبَابِ أحاديثُ كَثِيرَةٌ، وحاصلُ الْأَمرِ أَنَّهُ قَدْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أمرَ بِاسْتِقْبَالِ الصَّخْرَةِ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَكَانَ بِمَكَّةَ يُصَلِّي بَيْنَ الرُّكْنَيْنِ، فَتَكُونُ بَيْنَ يَدَيْهِ الْكَعْبَةُ وَهُوَ مُسْتَقْبِلٌ صَخْرَةَ بَيْتِ الْمَقْدِسِ، فَلَمَّا هَاجَرَ إِلَى الْمَدِينَةِ تَعَذَّرَ الجمعُ بَيْنَهُمَا، فَأَمَرَهُ اللَّهُ بِالتَّوَجُّهِ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ، قَالَهُ ابْنُ عَبَّاسٍ وَالْجُمْهُورُ، ثُمَّ اخْتَلَفَ هَؤُلَاءِ هَلْ كَانَ الْأَمْرُ بِهِ بِالْقُرْآنِ أَوْ بِغَيْرِهِ؛ عَلَى قَوْلَيْنِ، وَحَكَى الْقُرْطُبِيُّ فِي تَفْسِيرِهِ عَنْ عِكْرِمَةَ وَأَبِي الْعَالِيَةِ وَالْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ كَانَ بِاجْتِهَادِهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ. وَالْمَقْصُودُ أَنَّ التَّوَجُّهَ إِلَى بَيْتِ الْمَقْدِسِ بَعْدَ مَقْدَمِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْمَدِينَةَ، فاستمرَّ الأمرُ عَلَى ذَلِكَ بِضْعَةَ عَشَرَ شَهْرًا، وَكَانَ يُكْثِرُ الدعاءَ والابتهالَ أَنْ يُوَجَّهَ إِلَى الْكَعْبَةِ، الَّتِي هِيَ قِبْلَةُ إِبْرَاهِيمَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَأُجِيبَ إِلَى ذَلِكَ، وَأُمِرَ بِالتوجُّهِ إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ، فَخَطَبَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النَّاسَ، وَأَعْلَمَهُمْ بِذَلِكَ. وَكَانَ أَوَّلُ صَلَاةٍ صَلَّاهَا إِلَيْهَا صَلَاةُ الْعَصْرِ، كَمَا تَقَدَّمَ فِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ رِوَايَةِ الْبَرَاءِ. ووَقَعَ عِنْدَ النَّسَائِيِّ مِنْ رِوَايَةِ أَبِي سَعِيدِ بْنِ الْمُعَلَّى: أَنَّهَا الظُّهْرُ. وَأَمَّا أَهْلُ قُبَاءٍ، فَلَمْ يَبْلُغْهُمُ الْخَبَرُ إِلَى صَلَاةِ الْفَجْرِ مِنَ الْيَوْمِ الثَّانِي، كَمَا جَاءَ فِي الصَّحِيحَيْنِ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ: بَيْنَمَا النَّاسُ بِقُبَاءٍ فِي صَلَاةِ الصُّبْحِ، إِذْ جَاءَهُمْ آتٍ فَقَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أُمِرَ أَنْ يَسْتَقْبِلَ الْكَعْبَةَ، فَاسْتَقْبِلُوهَا. وَكَانَتْ وُجُوهُهُمْ إِلَى الشَّامِ فَاسْتَدَارُوا إِلَى الْكَعْبَةِ» [1].

وردت عن تحوُّل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، عدة روايات عن الصحابة، منها رواية البراء بن عازب التي تبين أن النبي ﷺ صلّى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً، وكان يحب التوجه إلى الكعبة. فنزل قوله تعالى} :قد نرى تقلب وجهك في السماء{، فأمره الله بالتوجه إلى المسجد الحرام. وقد فرحت اليهود أولًا باستقبال بيت المقدس، فلما تغيّرت القبلة اعترضوا، فنزل الرد الإلهي :{قل لله المشرق والمغرب} ... وتعددت الروايات حول أول صلاة صُلِّيت إلى الكعبة، فقيل العصر، وقيل الظهر، كما تأخر الخبر عن أهل قباء حتى صلاة الفجر.

«وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا حَصَلَ لِبَعْضِ النَّاسِ -مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرِّيَبِ وَالْكَفَرَةِ مِنَ الْيَهُودِ- ارْتِيَابٌ وَزَيْغٌ عَنِ الْهُدَى وَتَخْبِيطٌ وَشَكٌّ، وَقَالُوا: {مَا وَلاهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا} أَيْ: مَا لِهَؤُلَاءِ تَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ

[1] ابن كثير، (453/1).

كَذَا، وَتَارَةً يَسْتَقْبِلُونَ كَذَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ جَوَابَهُمْ فِي قَوْلِهِ: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ} أَيِ: الْحُكْمُ وَالتَّصَرُّفُ وَالْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ، وَحَيْثُمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ، وَ {لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ} [الْبَقَرَةِ: 177] أَيِ: الشَّأْنُ كُلُّهُ فِي امْتِثَالِ أَوَامِرِ اللَّهِ، فَحَيْثُمَا وَجَّهَنَا تَوَجَّهْنَا، فَالطَّاعَةُ فِي امْتِثَالِ أَمْرِهِ، وَلَوْ وَجَّهَنَا فِي كُلِّ يَوْمٍ مَرَّاتٍ إِلَى جِهَاتٍ مُتَعَدِّدَةٍ، فَنَحْنُ عَبِيدُهُ وَفِي تَصْرِيفِهِ وَخُدَّامُهُ، حَيْثُمَا وَجَّهَنَا تَوَجَّهْنَا، وَهُوَ تَعَالَى لَهُ بِعَبْدِهِ وَرَسُولِهِ مُحَمَّدٍ –صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ) –وَأُمَّتِهِ عِنَايَةٌ عَظِيمَةٌ؛ إِذْ هَدَاهُمْ إِلَى قِبْلَةِ إِبْرَاهِيمَ، خَلِيلِ الرَّحْمَنِ، وَجَعَلَ تَوَجُّهَهُمْ إِلَى الْكَعْبَةِ الْمَبْنِيَّةِ عَلَى اسْمِهِ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، أَشْرَفَ بُيُوتِ اللَّهِ فِي الْأَرْضِ، إِذْ هِيَ بِنَاءُ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَلِهَذَا قَالَ: {قُلْ لِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}»[1].

وقد أثار هذا التغيير شُبهاً لدى المنافقين وبعض أهل الكتاب، فاستنكروا تغيّر جهة الصلاة، فأنزل الله ردهم: {قل لله المشرق والمغرب} أي أن الأمر لله وحده. وبيّن أن الطاعة هي في الامتثال لأمر الله حيث وجّه عباده. ثم ختم بالتنويه بفضل التوجّه إلى الكعبة، قبلة إبراهيم عليه السلام، وكونها أشرف بيت وضع للناس.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُفۡسِدَ فِيهَا وَيُهۡلِكَ ٱلۡحَرۡثَ وَٱلنَّسۡلَۚ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتۡهُ ٱلۡعِزَّةُ بِٱلۡإِثۡمِۚ فَحَسۡبُهُۥ جَهَنَّمُۖ وَلَبِئۡسَ ٱلۡمِهَادُ ٢٠٦﴾[سورة البقرة,**204-206**]

«وهذا من أساليبهم وألاعيبهم وفسادهم وإفسادهم حيث منطقه حلو يجعله محبوبا بل ويشهد الله على ما في قلبه لا يشك فيه بأنه بأخبث قلب وأشد عداوة "... وهو الأخنس بن شريق كان رجلا حلو المنطق إذا لقي رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ ألان له القول وادعى أنه يحبه وأنه مسلم، وقال: يعلم الله أني صادق، وقيل: هو عام في المنافقين، كانت تحلولى ألسنتهم، وقلوبهم أمر من الصبر...وقيل كان بينه وبين ثقيف خصومة فبيتهم ليلا وأهلك مواشيهم وأحرق زروعهم ..»[2]

– ومن أوصافهم زيادة على ما في قلوبهم من مرض وعداوة فهم: – يفرحون لما يصيب المسلمين من سوء ويغتمون لما يصيبهم من خير.

1 السلبق، (453/1).
2 الكشاف الزمخشري.

سورة آل عمران

﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْاْ عَضُّواْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِۚ قُلْ مُوتُواْ بِغَيْظِكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُواْ بِهَاۖ وَإِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔاۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠ ﴾[سورة آل عمران,119-120]

وفي معنى هاتين الآيتين «وهذا بيان لفرط معاداتهم، حيث يحسدونهم على ما نالهم من الخير ويشمتون بهم فيما أصابهم من الشدة...»[1]

وهم طائفة تهمهم أنفسهم لا يكترثون لحال المسلمين وهذا مما حدث معهم في غزوة أحد حين غلب النعاس صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمنافقون يسرون في أنفسهم أن ليس لهم من الأمر شيء وفيما يلي تبيان أحوالهم وكشف أسرارهم .

﴿ ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَاۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ ﴾ [سورة آل عمران,154]

قال صاحب الكشاف: «... والطائفة الأخرى المنافقون ليس لهم هم إلا أنفسهم، أجبن قوم وأرعنه، وأخذله للحق {يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية} ... أخبر تعالى عنهم أنهم{يقولون} في تلك الحال: {هل لنا من الأمر من شيء} قال الله تعالى: { قل إن الأمر كله لله يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لك }ثم فسرما أخفوه في أنفسهم بقوله:{لوكان لنا من الأمر من أشيء ما قتلنا ههنا} أي يسرون هذه المقالة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال محمد بن إسحاق بن يسار: فحدثني يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن عبد الله بن الزبير قال: قال الزبير: لقد رأيتني مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حين اشتد الخوف علينا، أرسل الله عز وجل علينا النوم، فما منا من رجل إلا ذقنه في صدره، قال: فو الله إني لأسمع قول معتب بن قشير، ما أسمعه إلا كالحلم يقول: {لو كان لنا من

---

[1] الكشاف

الأمر شيء ما قتلنا هاهنا} فحفظتها منه، وفي ذلك أنزل الله تعالى: {لو كان من الأمر شيء} لقول معتب. رواه ابن أبي حاتم. قال الله تعالى: {قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم} أي هذا قدر مقدر من الله عز وجل وحكم حتم لازم لا يحاد عنه، ولا مناص منه»[1].

وهذا حال المنافقين في غزوة أُحد، إذ يصفهم بأنهم أجبن الناس، لا يهمهم إلا أنفسهم، ويظنون بالله ظنًّا سيئًا كظن الجاهلية. ويُظهر الله ما يُخفونه في أنفسهم من شك في أمر الجهاد والقدر، حيث قالوا سراًّ: "لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلنا هاهنا". وقد نقل الزمخشري رواية عن الزبير بن العوام تؤكد سماعه هذه المقولة من معتب بن قشير، فنزلت الآية تصديقًا لذلك. ثم يبين أن القتل قدر مكتوب لا مفر منه، حتى لو بقوا في بيوتهم.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ١٦٨﴾ [سورة آل عمران,167-168]

«قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ: حَدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلِمِ بْنِ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى بْنِ حِبَّانَ، وَعَاصِمُ بْنُ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، وَالْحُصَيْنُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَمْرِو بْنِ سَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ، وَغَيْرُهُمْ مِنْ عُلَمَائِنَا، كُلهم قَدْ حَدَّثَ قَالَ: خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -يَعْنِي حِينَ خَرَجَ إِلَى أُحُدٍ- فِي أَلْفِ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِهِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِالشَّوْطِ -بَيْنَ أُحُدٍ وَالْمَدِينَةِ- انْحَازَ عَنْهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ ابْنُ سَلُولَ بِثُلُثِ النَّاسِ، وَقَالَ أَطَاعَهُمْ فَخَرَجَ وَعَصَانِي، وَ وَاللَّهِ مَا نَدْرِي عَلَامَ نَقْتُلُ أَنْفُسَنَا هَاهُنَا أَيُّهَا النَّاسُ، فَرَجَعَ بِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ النَّاسِ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلِ النِّفَاقِ وَأَهْلِ الرَّيْبِ وَاتَّبَعَهُمْ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ حَرَامٍ أَخُو بَنِي سَلِمَةَ، يَقُولُ: يَا قَوْمِ، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ أَنْ تَخْذُلُوا نَبِيَّكُمْ وَقَوْمَكُمْ عِنْدَمَا حَضَرَ مِنْ عَدُوِّكُمْ، قَالُوا: لَوْ نَعْلَمُ أَنَّكُمْ تُقَاتِلُونَ مَا أَسْلَمْنَاكُمْ وَلَكِنَّا لَا نَرَى أَنْ يَكُونَ قِتَالٌ. فَلَمَّا اسْتَعْصَوْا عَلَيْهِ وَأَبَوْا إِلَّا الِانْصِرَافَ عَنْهُمْ، قَالَ: أَبْعَدَكُمُ اللَّهُ أَعْدَاءَ اللَّهِ، فَسَيُغْنِي اللَّهُ عَنْكُمْ. وَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلإِيمَانِ} اسْتَدَلُّوا بِهِ عَلَى أَنَّ الشَّخْصَ قَدْ تَتَقَلَّبُ بِهِ الْأَحْوَالُ، فَيَكُونُ فِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْكُفْرِ، وَفِي حَالٍ أَقْرَبَ إِلَى الْإِيمَانِ؛ لِقَوْلِهِ: {هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ

[1] نفسه

مِنهُمْ لِلإيمَانِ} ثُمَّ قَالَ: {يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ} يَعْنِي: أَنَّهُمْ يَقُولُونَ الْقَوْلَ وَلَا يَعْتَقِدُونَ صِحَّتَهُ، وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ هَذَا: {لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ} فَإِنَّهُمْ يَتَحَقَّقُونَ أَنَّ جُنْدًا مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَدْ جَاءُوا مِنْ بِلَادٍ بَعِيدَةٍ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ بِسَبَبِ مَا أُصِيبَ مِنْ سَرَاتِهِمْ يَوْمَ بَدْرٍ، وَهُمْ أَضْعَافُ الْمُسْلِمِينَ، أَنَّهُ كَائِنٌ بَيْنَهُمْ قِتَالٌ لَا مَحَالَةَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}

وفي تفسير الآية الثانية:" وَقَوْلُهُ: {الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا} أَيْ: لَوْ سَمِعُوا مِنْ مَشُورَتِنَا عَلَيْهِمْ فِي الْقُعُودِ وَعَدَمِ الْخُرُوجِ مَا قُتِلُوا مَعَ مَنْ قُتِلَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} أَيْ: إِنْ كَانَ الْقُعُودُ يَسْلَمُ بِهِ الشَّخْصُ مِنَ الْقَتْلِ وَالْمَوْتِ، فَيَنْبَغِي، أَنَّكُمْ لَا تَمُوتُونَ، وَالْمَوْتُ لَا بُدَّ آتٍ إِلَيْكُمْ ولو كنتم في بروج مشيدة، فأدرأوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين. قال مجاهد عن جابر بن عبد الله: نزلت هذه الآية في عبد الله بن أبي بن سلول»[1].

وصنف من المنافقين بتخلفهم يفرحون ومن لؤمهم انهم يحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فيفضحون.

﴿لَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أَتَواْ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحۡمَدُواْ بِمَا لَمۡ يَفۡعَلُواْ فَلَا تَحۡسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٖ مِّنَ ٱلۡعَذَابِۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ١٨٨﴾ [سورة آل عمران,188]

«....وَقَالَ الْبُخَارِيُّ: حَدَّثَنَا سَعِيدُ بْنُ أَبِي مَرْيَمَ، أَنْبَأَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنِي زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ يَسَارٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ أَنَّ رِجَالًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وسلم كان إِذَا خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْغَزْوِ تَخَلَّفُوا عَنْهُ، وَفَرِحُوا بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِذَا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْغَزْوِ اعْتَذَرُوا إِلَيْهِ وَحَلَفُوا، وَأَحَبُّوا أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا، فَنَزَلَتْ: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا} الْآيَةَ»[2].

يُوجز هذا الأثرُ سببَ نزولِ قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا﴾ [آل عمران: 188]. فالإسنادُ ينتهي إلى أبي سعيدٍ الخدريّ رضي الله عنه، ويُبيّن أن جماعةً من المنافقين في زمن النبي ﷺ كانوا يتخلّفون عن الغزاة، مسرورين ببقائهم في المدينة خلف رسول الله ﷺ، ثم إذا عاد ﷺ اعتذروا وحلفوا كذباً ليدرأوا عن أنفسهم اللوم، بل ويحبّون أن يُثني عليهم

---

[1] – ابن كثير(161/2، 162).

[2] – نفسه (182/2)

الناس بما لم يقدّموه من جهاد ولا طاعة. ففضحهم الله بهذا الوحي، مقرّراً مبدأ أن الفرح بالمعصية والحرص على الثناء الباطل مظهرٌ من مظاهر النفاق، وأن الله تعالى مُحيطٌ بسرائرهم وسيجازيهم على كذبهم وريائهم، بينما يوجّه المؤمنين إلى الإخلاص والعمل الصادق الخالي من طلب المدح أو السمعة.

سورة النساء ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ۝ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ۝ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ۝ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ۝﴾[سورة النساء,60-63]

«هَذَا إِنْكَارٌ مِنَ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ، عَلَى مَنْ يَدَّعِي الْإِيمَانَ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْأَنْبِيَاءِ الْأَقْدَمِينَ، وَهُوَ مَعَ ذَلِكَ يُرِيدُ التَّحَاكُمَ فِي فَصْلِ الْخُصُومَاتِ إِلَى غَيْرِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ رَسُولِهِ، كَمَا ذُكِرَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَةِ: أَنَّهَا فِي رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَرَجُلٍ مِنَ الْيَهُودِ تَخَاصَمَا، فَجَعَلَ الْيَهُودِيُّ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ مُحَمَّدٌ. وَذَاكَ يَقُولُ: بَيْنِي وَبَيْنَكَ كَعْبُ بْنُ الْأَشْرَفِ. وَقِيلَ: فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الْمُنَافِقِينَ، مِمَّنْ أَظْهَرُوا الْإِسْلَامَ، أَرَادُوا أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى حُكَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ. وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ، وَالْآيَةُ أَعَمُّ مِنْ ذَلِكَ كُلِّهِ، فَإِنَّهَا ذَامَّةٌ لِمَنْ عَدَلَ عَنِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَتَحَاكَمُوا إِلَى مَا سِوَاهُمَا مِنَ الْبَاطِلِ، وَهُوَ الْمُرَادُ بِالطَّاغُوتِ هَاهُنَا؛ وَلِهَذَا قَالَ: {يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ [وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا. وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا]}

وَقَوْلُهُ: {يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} أَيْ: يُعْرِضُونَ عَنْكَ إِعْرَاضًا كَالْمُسْتَكْبِرِينَ عَنْ ذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى عَنِ الْمُشْرِكِينَ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [لُقْمَانَ:21] هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ بِخِلَافِ الْمُؤْمِنِينَ، الَّذِينَ قَالَ اللَّهُ فِيهِمْ: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا [وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ] } [النُّورِ: 51] . {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا (62) } ثُمَّ قَالَ تَعَالَى فِي ذَمِّ الْمُنَافِقِينَ: {فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ} أَيْ: فَكَيْفَ بِهِمْ إِذَا سَاقَتْهُمُ الْمَقَادِيرُ إِلَيْكَ فِي مَصَائِبَ تَطْرُقُهُمْ بِسَبَبِ ذُنُوبِهِمْ واحتاجوا إليك في ذلك»[1]

[1]- ابن كثير، (346/2).

يُبيِّن هذا المقطع إنكارَ الله تعالى على من يدّعي الإيمان بالقرآن وبالكتب السابقة، ثم يرفض التحاكم إلى الشريعة الإسلامية، مفضّلًا التحاكم إلى غيرها، كما حصل في القصة المذكورة بين رجل من الأنصار وآخر من اليهود. فاليهودي اختار النبي ﷺ للفصل، بينما اختار الأنصاري كعب بن الأشرف. كما يُشير النص إلى أن الآية تشمل كل من يُعرض عن التحاكم إلى الشريعة، ويُقبل على الباطل، وهو ما عبّر عنه بـــ"الطاغوت". ويفسر قوله تعالى: {يصدون عنك صدودا} بأن المنافقين يُعرضون عن النبي استكبارًا، خلافًا للمؤمنين الذين يُسارعون إلى طاعة الله ورسوله. ويُختتم المقطع ببيان أن هؤلاء المنافقين إذا نزلت بهم مصيبة بسبب أفعالهم، جاؤوا يعتذرون ويُظهرون أنهم ما أرادوا إلا الخير، فيذمهم الله ويُظهر نفاقهم

﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِى تَقُولُ ۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ ۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾ [سورة النساء,81]

«وَقَوْلُهُ: {ويقولون طاعة} يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّهُمْ يُظْهِرُونَ الْمُوَافَقَةَ وَالطَّاعَةَ {فإذا برزوا من عندك} أَيْ: خَرَجُوا وَتَوَارَوْا عَنْكَ {بيت طائفة منهم غير الذي تقول} أَيْ: اسْتَسَرُّوا لَيْلًا فِيمَا بَيْنَهُمْ بِغَيْرِ مَا أَظْهَرُوهُ. فَقَالَ تَعَالَى: {والله يكتب ما يبيتون} أَيْ: يَعْلَمُهُ وَيَكْتُبُهُ عَلَيْهِمْ بِمَا يَأْمُرُ بِهِ حَفَظَتَهُ الْكَاتِبِينَ، الَّذِينَ هُمْ مُوَكَّلُونَ بِالْعِبَادِ. يَعْلَمُونَ مَا يَفْعَلُونَ. وَالْمَعْنَى فِي هَذَا التَّهْدِيدِ، أَنَّهُ تَعَالَى أَخْبَرَ بِأَنَّهُ عَالِمٌ بِمَا يُضْمِرُونَهُ وَيُسِرُّونَهُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَمَا يَتَّفِقُونَ عَلَيْهِ لَيْلًا مِنْ مُخَالَفَةِ الرَّسُولِ وَعِصْيَانِهِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ أَظْهَرُوا لَهُ الطَّاعَةَ وَالْمُوَافَقَةَ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ. كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَقُولُونَ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ} [النُّورِ: 47]

وَقَوْلُهُ: {فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} أَيِ: اصْفَحْ عَنْهُمْ وَاحْلُمْ عَلَيْهِمْ وَلَا تُؤَاخِذْهُمْ، وَلَا تَكْشِفْ أُمُورَهُمْ لِلنَّاسِ، وَلَا تَخَفْ مِنْهُمْ أَيْضًا {وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا} أَيْ: كَفَى بِهِ وَلِيًّا وَنَاصِرًا وَمُعِينًا لِمَنْ تَوَكَّلَ عَلَيْهِ وَأَنَابَ إِلَيْهِ.»[1]

في هذه الآيات يحذر المولى سبحانه نبيه من نفاق طائفة من الناس، يظهرون للنبي صلى الله عليه وسلم الطاعة والموافقة، ولكنهم إذا خرجوا من عنده وأصبحوا في حال خفاء، دبّر بعضهم أمرًا يخالف ما أظهروه، ثم يأتي التهديد الإلهي بأن الله يطّلع على سرائرهم ويكتب ما يبيّتون، فيجازيهم عليه، ولو أخفوه عن الناس، ثم تأمر الآيات النبي صلى الله عليه وسلم أن يُعرض عنهم ولا يواجههم ،

[1] –السابق، (364/2).

بل يتحلى بالحلم ويكل أمرهم إلى الله، فلا يخافهم ولا ينشغل بكشف نفاقهم، بل يتوكل على الله الذي يكفيه ناصراً ووكيلاً، تسجل الآيات مشهداً من صفات المنافقين، وتفضح ازدواجيتهم، وتؤكد أن الله محيط بأسرارهم، ويأمر النبي صلى الله عليه وسلم بالحكمة والصفح، والثقة المطلقة بالله.

﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ٨٨﴾ [سورة النساء,88]

«حَدَّثَنَا بهز، حدَّثَنا شُعْبَةُ، قَالَ عَدِيٌّ بْنُ ثَابِتٍ: أَخْبَرَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يَزِيدَ، عَنْ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خرج إِلَى أُحُد، فرجع نَاسٌ خرجُوا معَهُ، فَكَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عليهِ وَسَلَّمَ فِيهِمْ فِرْقَتَيْنِ: فِرْقَةٌ تَقُولُ: نَقْتُلُهُمْ. وفِرْقَةٌ تَقُولُ: لَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ} فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّهَا طَيْبة، وَإِنَّهَا تَنْفِي الْخَبَث كَمَا تَنْفِي النَّارُ خَبَثَ الْفِضَّةِ".

أَخْرَجَاهُ فِي الصَّحِيحَيْنِ، مِنْ حَدِيث شُعْبَةَ

وَقَدْ ذَكَرَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ يَسار فِي وَقْعَةِ أُحُدٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ رَجَعَ يَوْمَئِذٍ بِثُلُثِ الْجَيْشِ، رَجَعَ بِثَلَاثِمِائَةٍ وبَقِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَبْعِمِائَةٍ»[1]

والملاحظ أنه وإن كثرت الروايات في نقل أخبارهم أنها قد أتـــفقت فيما تصف من لئيم خصالهم

«وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: نَزَلَتْ فِي قَوْمٍ كَانُوا بِمَكَّةَ، قَدْ تَكَلَّمُوا بِالْإِسْلَامِ، كَانُوا يُظَاهِرُونَ الْمُشْرِكِينَ، فَخَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ يَطْلُبُونَ حَاجَةً لَهُمْ، فَقَالُوا: إِنْ لَقِينَا أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ فَلَيْسَ عَلَيْنَا مِنْهُمْ بَأْسٌ، وَأَنَّ الْمُؤْمِنِينَ لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّهُمْ قَدْ خَرَجُوا مِنْ مَكَّةَ، قَالَتْ فِئَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: ارْكَبُوا إِلَى الْجُبَنَاءِ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ يُظَاهِرُونَ عَلَيْكُمْ عَدُوَّكُمْ. وَقَالَتْ فِئَةٌ أُخْرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: سُبْحَانَ اللَّهِ! أَوْ كَمَا قَالُوا: أَتَقْتُلُونَ قَوْمًا قَدْ تَكَلَّمُوا بِمِثْلِ مَا تَكَلَّمْتُمْ بِهِ؟ أَمِنْ أَجْلِ أَنَّهُمْ لَمْ يُهَاجِرُوا وَلَمْ يَتْرُكُوا دِيَارَهُمْ تُسْتَحَلُّ دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالُهُمْ. فَكَانُوا كَذَلِكَ فِئَتَيْنِ، وَالرَّسُولُ عِنْدَهُمْ لَا يَنْهَى وَاحِدًا مِنَ الْفَرِيقَيْنِ عَنْ شَيْءٍ فَأَنْزَلَ اللَّهُ: {فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ}

[1] – ابن كثير(371/2).

رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، وَقَدْ رُوِيَ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ وَعِكْرِمَةَ وَمُجَاهِدٍ وَالضَّحَّاكِ وَغَيْرِهِمْ قَرِيبٌ مِنْ هَذَا.

وَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَسْلَمَ، عَنِ ابنٍ لِسَعْدِ بْنِ مُعَاذٍ: أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي تَقَاوُلِ الْأَوْسِ وَالْخَزْرَجِ فِي شَأْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، حِينَ اسْتَعْذَرَ مِنْهُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْمِنْبَرِ فِي قَضِيَّةِ الْإِفْكِ. وَهَذَا غَرِيبٌ، وَقِيلَ غَيْرُ ذَلِكَ. وَقَوْلُهُ: {وَاللَّهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا} أَيْ: رَدَّهُمْ وَأَوْقَعَهُمْ فِي الْخَطَأِ.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: {أَرْكَسَهُمْ} أَيْ: أَوْقَعَهُمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ: أَهْلَكَهُمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَضَلَّهُمْ.

وَقَوْلُهُ: {بِمَا كَسَبُوا} أَيْ: بِسَبَبِ عِصْيَانِهِمْ وَمُخَالَفَتِهِمُ الرَّسُولَ وَاتِّبَاعِهِمُ الْبَاطِلَ.

{أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللَّهُ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلا} أَيْ: لَا طَرِيقَ لَهُ إِلَى الْهُدَى وَلَا مَخْلَصَ لَهُ إِلَيْهِ.

ثُمَّ قَالَ: {وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً} أَيْ: هُمْ يَوَدُّونَ لَكُمُ الضَّلَالَةَ لِتَسْتَوُوا أَنْتُمْ وَإِيَّاهُمْ فِيهَا، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِشِدَّةِ عَدَاوَتِهِمْ وَبُغْضِهِمْ لَكُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {فَلا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا} أَيْ: تَرَكُوا الْهِجْرَةَ، قَالَهُ الْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: أَظْهَرُوا كُفْرَهُمْ {فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ وَلِيًّا وَلا نَصِيرًا} أَيْ: لا تُوالوهم وَلَا تَسْتَنْصِرُوا بِهِمْ على الأعداء ما داموا كذلك»[1]

وكثيرا ما يلي ذكر أهل النفاق وقبيح صنيعهم ذكر ما به يعاقبون رغم أنهم يمهلون

﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ٩١﴾ [سورة النساء,91]

«وقوله: {ستجدون ءاخرين يريدون أن يأمنوكم ويأمنوا قومهم كلما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها} الآية، هؤلاء في الصورة كمن تقدمهم، ولكن نية هؤلاء غير نية أولئك، فإن هؤلاء منافقون يظهرون للنبي صلى الله عليه وسلم ولأصحابه الإسلام ليأمنوا بذلك عندهم على دمائهم وأموالهم

[1] –ابن كثير، (371/2، 372).

وذراريهم ويصانعون الكفار في الباطل، فيعبدون معهم ما يعبدون ،ليأمنا بذلك عندهم، وهم في الباطن مع أولئك، كما قال تعالى:{وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون} البقرة14 وقال ههنا:{ كل ما ردوا إلى الفتنة أركسوا فيها } أي انهمكوا فيها . قال السدي : والفتنة ههنا : الشرك، وحكى ابن جرير عن مجاهد : أنها نزلت في قوم من أهل مكة، كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فيسلمون رياء، ثم يرجعون إلى قريش فيرتكسون في الأوثان ، يبتغون بذلك أن يأمنوا ههنا وههنا، فأمر بقتالهم إن لم يعتزلوا ويصلحوا، واهذتا قال: {فيها فإن لم يعتزلوكم ويلقوا إليكم السلم ويكفوا } أي :عن القتال {فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم} أي لقيتموهم { وأولئكم جعلنا لكم عليهم سلطانا مبينا } أي بينا واضحا»[1]

﴿وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسۡتَخۡفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمۡ إِذۡ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرۡضَىٰ مِنَ ٱلۡقَوۡلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعۡمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلۡتُمۡ عَنۡهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنۡهُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلًا ١٠٩﴾ [سورة النساء,107-109]

«أخرج غير واحد عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه أنه قال: كان أهل بيت منا يقال لهم: بنو أبيرق وهم بشر وبشير ومبشر، وكان بشير رجلا منافقا، يقول الشعر ويهجو به أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ينحله بعض العرب ويقول: قال فلان كذا، وقال فلان كذا، فإن سمع أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ذلك الشعر قالوا: والله ما يقول هذا الشعر إلا هذا الخبيث فقال:

أو كلما قال الرجال قصيدة ... أضموا فقالوا ابن الأبيرق قالها

وكانوا أهل فاقة وحاجة في الجاهلية والإسلام، وكان طعام الناس بالمدينة التمر والشعير، وكان الرجل إذا كان له يسار فقدمت ضافطة من الشام من الدرمك، ابتاع منها فخص بها نفسه، فقدمت ضافطة فابتاع عمي رفاعة بن زيد حملا من الدرمك فجعله في مشربة له، وفي المشربة سلاح له: درعان وسيفاهما وما يصلحهما، فعدا عدي من تحت الليل، فنقب المشربة وأخذ الطعام والسلاح.

فلما أصبح أتاني عمي رفاعة فقال: يابن أخي تعلم أنه عدي علينا في ليلتنا هذه، فنقبت مشربتنا فذهب بطعامنا وسلاحنا. فتجسسنا في الدار وسألنا فقيل لنا: قد رأينا بني أبيرق قد استوقدوا نارا في

[1] –نفسه (373/2).

هذه الليلة، ولا نرى فيما نرى إلا على بعض طعامكم. فقال بنو أبيرق: ــ ونحن نسأل في الدار ــ: والله ما نرى صاحبكم إلا لبيد بن سهل، رجلا منا له صلاح وإسلام، فلما سمع ذلك لبيد اخترط سيفه، ثم أتى بني أبيرق، وقال: أنا أسرق؟ فو الله ليخالطنكم هذا السيف أو لتبينن هذه السرقة. قالوا: إلبك عنا أيها الرجل، فو الله ما انت بصاحبها. فسألنا في الدار حتى لم نشك أنهم أصحابها، فقال لي عمي: يا ابن أخي لو أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت له ذلك. فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت: يا رسول الله، إن أهل بيت منا أهل جفاء، عمدوا إلى عمي رفاعة فنقبوا مشربة له، وأخذوا سلاحه وطعامه، فليردوا علينا سلاحنا، فأما الطعام فلا حاجة لنا فيه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "سأنظر في ذلك"[1].

في هذا مسألة مهمة وهي أن نتبين الأمر ولا نستعجل الحكم.

في هذه القصة المروية عن قتادة بن النعمان رضي الله عنه، تتجلّى مسألة تربوية عظيمة، وهي ضرورة التبيّن وعدم الاستعجال في الحكم، وهي من القيم القرآنية الرفيعة التي حثّ الإسلام عليها، كما في قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا} الحجرات 6

ففي الحكاية: لما اتُّهم بنو أبيرق بالسرقة، حاولوا دفع التهمة عن أنفسهم بإلصاقها برجل صالح من قومهم، هو **لبيد بن سهل**، وكان الرجل معروفًا بالصلاح، فاستشاط غضباً من هذا الافتراء، وهدّدهم إن لم يُظهروا الحقيقة.

لكن الملفت أن قتادة وعمه رفاعة لم يتعجلا باتهام أحد، بل تتبّعا الأمر وسألوا، حتى قوي في أنفسهم الشك تجاه بني أبيرق، ثم لم يحكموا عليهم بأنفسهم، بل رفعوا القضية إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ليقضي فيها بعد التبيّن، وهذا هو المنهج الإسلامي الحق

التحري، وسؤال أهل الخبرة، وجمع الأدلة، ثم رفع الأمر لأهله إن تعيّن الحكم.

ففي هذه الرواية درس واضح:

أن العدل لا يقوم إلا على أساس من التحقق، وأن الظنون لا تكفي لإدانة أحد، مهما كثرت الإشارات.

---

[1] روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني لشهاب الدين أبي الثناء محمود بن عبد الله الألوسي البغدادي ؛ تح ماهر حبوش ، ط1 (1431ه/2010م) مؤسس الرسالة (6/268ــ269)

وهو مبدأ عظيم في التعامل بين الناس، خاصة في زمن كثرت فيه الإشاعات والاتهامات دون بينة.

«فلما سمع بنو أبيرق أتوا رجلا منهم يقال له أسير بن عروة فكلموه في ذلك، واجتمع إليه أناس من أهل الدار، فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا: يا رسول الله، إن قتادة بن النعمان وعمه عمدا إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت. قال قتادة: فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فكلمته، فقال: "عمدت إلى أهل بيت ذك منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير بينة ولا ثبت " فرجعت ولددت أني خرجت من بعض مالي ولم أكلم رسول الله صلى الله عليه وسلم في ذلك.

فأتاني عمي رفاعة فقال: ما صنعت؟ فـأخبرته بما قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: الله تعالى المستعان. فلم نلبث أن نزل القرآن: {إنا أنزلنا إليك الكتاب.}

فلما نزل أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بالسلاح فرده إلى رفاعة، فلما أتيت عمي بالسلاح، وكان شيخا قد عسا في الجاهلية، وكنت أرى إسلامه مدخولا، قال: يا بن أخي، هو في سبيل الله. فعرفت أن إسلامه كان صحيحا، ثم لحق بشير بالمشركين فنزل على سلافة بنت سعد، فأنزل الله تعالى: {ومن يشاقق الرسول}»[1] .

تتناول الرواية حادثة اتهام "بني أبيرق" بالسرقة، حيث سُرقت دروع من بيت رفاعة بن زيد، فاتهمهم قتادة بن النعمان وعمه رفاعة. لكن بني أبيرق لجؤوا إلى رجل منهم يُدعى أسير بن عروة، فاستعانوا به ليشفع لهم، واجتمع معه بعض أهل الحي فذهبوا إلى النبي صلى الله عليه وسلم، مدافعين عن بني أبيرق ومشككين في اتهام قتادة وعمه، واصفين أهلهم بالإسلام والصلاح. عندها عاتب النبي قتادة، فندم هذا الأخير على مداخلته، متمنياً لو أنه سكت واحتسب ماله. وبعد فترة وجيزة، نزل الوحي ليبرّئ رفاعة ويؤكد صدقه، فجاء السلاح المسروق وردَّه النبي إلى صاحبه. عندها قال رفاعة قولاً يبين إخلاصه، مما أزال الشكوك التي كانت عند قتادة في صدق إسلام عمه. ثم يُختتم الخبر بأن بشير (من بني أبيرق) هرب إلى المشركين، فنزل فيه قوله تعالى} **:ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى {...**[النساء: 115]، دلالة على كفره ومصيره.

[1] السابق، (270/6)

﴿ وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْكَٰفِرِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجْعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ١٤٤ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا ١٤٥ ﴾[سورة النساء,**140-145**]

«ثم قَالَ: {بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عذَابًا أَلِيماً} يَعْنِي: أَنَّ الْمُنَافِقِينَ مِنْ هَذِهِ الصِّفَةِ فَإِنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا، فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ وَصَفَهُمْ بِأَنَّهُمْ يَتَّخِذُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، بِمَعْنَى أَنَّهُمْ مَعَهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ، يُوَالُونَهُمْ وَيُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ، وَيَقُولُونَ لَهُمْ إِذَا خَلَوْا بِهِمْ: إِنَّمَا نَحْنُ مَعَكُمْ، إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ. أَيْ بِالْمُؤْمِنِينَ فِي إِظْهَارِنَا لَهُمُ الْمُوَافَقَةَ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَيْهِمْ فِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُوَالَاةِ الْكَافِرِينَ: {أَيَبْتَغُونَ عِنْدَهُمُ الْعِزَّةَ}؟ ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى بِأَنَّ الْعِزَّةَ كُلَّهَا لِلَّهِ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَلِمَنْ جَعَلَهَا لَهُ. كَمَا قَالَ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى: {مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعاً} [فَاطِرٍ: 10] ، وَقَالَ تَعَالَى: {وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [الْمُنَافِقُونَ: 8] . وَالْمَقْصُودُ مِنْ هَذَا التَّهْيِيجِ عَلَى طَلَبِ الْعِزَّةِ مِنْ جَنَابِ اللَّهِ، وَالِالْتِجَاءِ إِلَى عُبُودِيَّتِهِ، وَالِانْتِظَامِ فِي جُمْلَةِ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ لَهُمُ النُّصْرَةُ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ

وَيُنَاسِبُ أَنْ يُذْكَرَ هَاهُنَا الْحَدِيثُ الَّذِي رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا حُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ، حَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ عَيَّاشٍ، عَنْ حُمَيْدٍ الْكِنْدِيِّ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ نُسَيٍّ، عَنْ أَبِي رَيْحَانَةَ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَنِ انْتَسَبَ إِلَى تِسْعَةِ آبَاءٍ كُفَّارٍ، يُرِيدُ بِهِمْ عِزًّا وَفَخْرًا، فَهُوَ عَاشِرُهُمْ فِي النَّارِ.

تَفَرَّدَ بِهِ أَحْمَدُ وَأَبُو رَيْحَانَةَ هَذَا هُوَ أَزْدِيٌّ، وَيُقَالُ: أَنْصَارِيٌّ. اسْمُهُ شَمْعُونُ بِالْمُعْجَمَةِ، فِيمَا قَالَهُ الْبُخَارِيُّ، وَقَالَ غَيْرُهُ: بِالْمُهْمَلَةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ." فهم بذلك في مكانة حقيرة وذلة يحذرنا أن نقعد معهم فنكون مثلهم.»[1]

"وَقَوْلُهُ [تَعَالَى] {وقَدْ نزل عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} أَيْ: إِذَا ارْتَكَبْتُمِ النَّهْيَ بَعْدَ وُصُولِهِ إِلَيْكُمْ، وَرَضِيتُمْ بِالْجُلُوسِ مَعَهُمْ فِي الْمَكَانِ الَّذِي يُكْفَرُ فِيهِ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيُسْتَهْزَأُ وَيُنْتَقَصُ بِهَا، وَأَقْرَرْتُمُوهُمْ عَلَى ذَلِكَ، فَقَدْ شَارَكْتُمُوهُمْ فِي الَّذِي هُمْ فِيهِ. فَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [أَيْ] فِي الْمَأْثَمِ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ: "مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يَجْلِسْ عَلَى مَائِدَةٍ يُدار عَلَيْهَا الخمْرُ.

وَالَّذِي أُحِيلَ عَلَيْهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ مِنَ النَّهْيِ فِي ذَلِكَ، هُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ، وَهِيَ مَكِّيَّةٌ: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ [حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ]} [الْأَنْعَامِ: 68] قَالَ مُقَاتِلُ بْنُ حَيَّانَ: نَسَخَتْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّتِي فِي الْأَنْعَامِ. يَعْنِي نَسَخَ قَوْلَهُ: {إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} لِقَوْلِهِ {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} (الأنعام :69) وَقَوْلُهُ: {إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا} أَيْ: كَمَا أَشْرَكُوهُمْ فِي الْكُفْرِ، كَذَلِكَ شَارَكَ اللَّهُ بَيْنَهُمْ فِي الْخُلُودِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ أَبَدًا، وَجَمَعَ بَيْنَهُمْ فِي دَارِ الْعُقُوبَةِ وَالنَّكَالِ، وَالْقُيُودِ وَالْأَغْلَالِ. وَشَرَابِ الْحَمِيمِ وَالغِسْلين لا الزّلال»[2].

وهنا يتوعدهم الله بعذاب جهنم كافرين ومنافقين جميعا كما اجتمعوا في أولاهم على معصيته والخوض في آياته.

﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١﴾ [سورة النساء,141]

«يُخْبِرُ تَعَالَى عَنِ الْمُنَافِقِينَ أَنَّهُمْ يَتَرَبَّصُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ دَوَائِرَ السُّوءِ، بِمَعْنَى يَنْتَظِرُونَ زَوَالَ دَوْلَتِهِمْ، وَظُهُورَ الْكُفْرِ عَلَيْهِمْ، وَذَهَابَ مِلَّتِهِمْ {. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ} أَيْ: نَصْرٌ وَتَأْيِيدٌ وَظَفَرٌ وَغَنِيمَةٌ {قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ}؟ أَيْ: يَتَوَدَّدُونَ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِهَذِهِ الْمَقَالَةِ {وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ} أَيْ:

---

[1] ابن كثير(435/2)
[2] - نفسه (235/2-236) .

إِدَالَةٌ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ، كَمَا وقَعَ يومَ أُحدٍ، فَإِنَّ الرسُلَ تُبْتَلَى ثُمَّ يَكُونُ لَهَا الْعَاقِبَةُ {قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ ونَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}؟ أَيْ: سَاعَدْنَاكُمْ فِي الْبَاطِنِ، ومَا أَلَوْنَاهُمْ خَبَالًا وتَخْذِيلًا حَتَّى انْتَصَرْتُمْ عَلَيْهِمْ.

وَقَالَ السُّدِّيُّ: {نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ} نَغْلِبْ عَلَيْكُمْ، كَقَوْلِهِ: {اسْتَحْوَذَ عَلَيْهِمُ الشَّيْطَانُ} [الْمُجَادَلَةِ: 19] وَهَذَا أَيْضًا تَوَدُّدٌ مِنْهُمْ إِلَيْهِمْ، فَإِنَّهُمْ كَانُوا يُصَانِعُونَ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ؛ لِيَحْظَوْا عِنْدَهُمْ وَيَأْمَنُوا كَيْدَهُمْ، وَمَا ذَاكَ إِلَّا لِضَعْفِ إِيمَانِهِمْ، وَقِلَّةِ إِيقَانِهِمْ.

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ} أَيْ: بِمَا يَعْلَمُهُ مِنْكُمْ -أَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ- مِنَ الْبَوَاطِنِ الرَّدِيئَةِ، فَلَا تَغْتَرُّوا بِجَرَيَانِ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ عَلَيْكُمْ ظَاهِرًا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لِمَا لَهُ [تَعَالَى] فِي ذَلِكَ مِنَ الْحِكْمَةِ، فَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا تَنْفَعُكُمْ ظَوَاهِرُكُمْ، بَلْ هُوَ يَوْمٌ تُبْلَى فِيهِ السَّرَائِرُ وَيُحَصَّلُ مَا فِي الصُّدُورِ»[1]

وَقَوْلُهُ: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} قَالَ عَبْدُ الرَّزَّاقِ: أَنْبَأَنَا الثَّوْرِيُّ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ ذَرٍّ، عَنْ يُسَيْعٍ الْكِنْدِيِّ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ، فَقَالَ: كَيْفَ هَذِهِ الْآيَةُ: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}؟ فَقَالَ عَلِيٌّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ادْنُه ادْنُهْ، ثُمَّ قَالَ: {فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} وَكَذَا رَوَى ابْنُ جُرَيْجٍ عَنْ عَطَاءٍ الْخُرَاسَانِيِّ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} قَالَ: ذَاكَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَكَذَا رَوَى السُّدِّيُّ عَنْ أَبِي مَالِكٍ الْأَشْجَعِيِّ: يَعْنِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} أَيْ: حُجَّةً.

وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْمُرَادُ: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا} أَيْ: فِي الدُّنْيَا، بِأَنْ يُسَلَّطُوا عَلَيْهِمُ اسْتِيلَاءَ اسْتِئْصَالٍ بِالْكُلِّيَّةِ، وَإِنْ حَصَلَ لَهُمْ ظَفَرٌ فِي بَعْضِ الْأَحْيَانِ عَلَى بَعْضِ النَّاسِ، فَإِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا [وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ. يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ]} [غَافِرٍ: 51، 52] . وَعَلَى هَذَا فَيَكُونُ رَدًّا عَلَى الْمُنَافِقِينَ فِيمَا أَمَّلُوهُ وَتَرَبَّصُوهُ وَانْتَظَرُوهُ مِنْ زَوَالِ دَوْلَةِ الْمُؤْمِنِينَ، وَفِيمَا سَلَكُوهُ مِنْ مُصَانَعَتِهِمُ الْكَافِرِينَ، خَوْفًا عَلَى أَنْفُسِهِمْ مِنْهُمْ إِذَا هُمْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُؤْمِنِينَ فَاسْتَأْصَلُوهُمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ [يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ] نَادِمِينَ} [الْمَائِدَةِ: 52] .

[1] -السابق، (436/2).

وَقَد استَدَلَّ كَثِيرٌ مِن الْعُلَمَاءِ بِهَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ عَلَى أَصَحِّ قَوْلَيِ الْعُلَمَاءِ، وَهُوَ الْمَنْعُ مِنْ بَيْعِ الْعَبْدِ الْمُسْلِمِ مِنَ الْكَافِرِ لِمَا فِي صِحَّةِ ابْتِيَاعِهِ مِنَ التَّسْلِيطِ لَهُ عَلَيْهِ وَالْإِذْلَالِ، وَمَنْ قَالَ مِنْهُمْ بِالصِّحَّةِ يَأْمُرُهُ بِإِزَالَةِ مِلْكِهِ عَنْهُ فِي الْحَالِ؛ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلا}»[1].

﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ١٤٢ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ١٤٣﴾[سورة النساء,142-143]

«قَدْ تَقَدَّمَ فِي أَوَّلِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ قَوْلُهُ تَعَالَى: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِين آمَنُوا} [الْبَقَرَةِ: 9] وَقَالَ هَاهُنَا: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} وَلَا شَكَّ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يُخَادَعُ، فَإِنَّهُ الْعَالِمُ بِالسَّرَائِرِ وَالضَّمَائِرِ، وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لِجَهْلِهِمْ وَقِلَّةِ عِلْمِهِمْ وَعَقْلِهِمْ، يَعْتَقِدُونَ أَنَّ أَمْرَهُمْ كَمَا رَاجَ عِنْدَ النَّاسِ وَجَرَتْ عَلَيْهِمْ أَحكامُ الشَّرِيعَةِ ظَاهِرًا، فَكَذَلِكَ يَكُونُ حُكْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِنْدَ اللَّهِ، وَأَنَّ أَمْرَهُمْ يَرُوجُ عِنْدَهُ، كَمَا أَخْبَرَ عَنْهُمْ تَعَالَى أَنَّهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَحْلِفُونَ لَهُ: أَنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الِاسْتِقَامَةِ وَالسَّدَادِ، وَيَعْتَقِدُونَ أَنَّ ذَلِكَ نَافِعٌ لَهُمْ عِنْدَهُ، فَقَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ [وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [الْمُجَادَلَةِ: 18]

وَقَوْلُهُ: {وَهُوَ خَادِعُهُمْ} أَيْ: هُوَ الَّذِي يَسْتَدْرِجُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ وَضَلَالِهِمْ، وَيَخْذُلُهُمْ عَنِ الْحَقِّ وَالْوُصُولِ إِلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ فِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ [قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ. يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ قَالُوا بَلَى وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأمَانِيُّ حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ. فَالْيَوْمَ لَا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مَأْوَاكُمُ النَّارُ هِيَ مَوْلاكُمْ] وَبِئْسَ الْمَصِيرُ} [الْحَدِيدِ: 13–15]، وَقَدْ وَرَدَ فِي الْحَدِيثِ: "مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللَّهُ بِهِ، وَمَنْ رَاءَى رَاءَى اللَّهُ بِهِ" وَفِي حَدِيثٍ آخَرَ: "إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَبْدِ إِلَى الْجَنَّةِ فِيمَا يَبْدُو لِلنَّاسِ، وَيُعْدَلُ بِهِ إِلَى النَّارِ" عِيَاذًا بِاللَّهِ مِنْ ذَلِكَ.»[2]

---

[1] –ابن كثير (436/2، 437).

[2] السابق، (437/2)

وَقَوْلُهُ: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى [يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا]} هَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ فِي أَشْرَفِ الْأَعْمَالِ وَأَفْضَلِهَا وَخَيْرِهَا، وَهِيَ الصَّلَاةُ. إِذَا قَامُوا إِلَيْهَا قَامُوا وَهُمْ كُسَالَى عَنْهَا؛ لِأَنَّهُمْ لَا نِيَّةَ لَهُمْ فِيهَا، وَلَا إِيمَانَ لَهُمْ بِهَا وَلَا خَشْيَةَ، وَلَا يَعْقِلُونَ مَعْنَاهَا كَمَا رَوَى ابْنُ مَرْدَوَيْهِ، مِنْ طَرِيقِ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: يكره أَنْ يَقُومَ الرجلُ إِلَى الصَّلَاةِ وَهُوَ كَسْلَانُ، وَلَكِنْ يَقُومُ إِلَيْهَا طَلْقَ الْوَجْهِ، عَظِيمَ الرَّغْبَةِ، شَدِيدَ الْفَرَحِ، فَإِنَّهُ يُنَاجِي اللَّهَ [تَعَالَى] وَإِنَّ اللَّهَ أَمَامَهُ يَغْفِرُ لَهُ وَيُجِيبُهُ إِذَا دَعَاهُ، ثُمَّ يَتْلُو ابْنُ عَبَّاسٍ هَذِهِ الْآيَةَ: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى}

وَرُوِيَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، نَحْوُهُ.

فَقَوْلُهُ تَعَالَى: {وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى} هَذِهِ صِفَةُ ظَوَاهِرِهِمْ، كَمَا قَالَ: {وَلا يَأْتُونَ الصَّلاةَ إِلا وَهُمْ كُسَالَى} [التَّوْبَةِ: 54] ثُمَّ ذكر تعالى صفة بواطنهم الفاسدة، فقال: {يُرَاءُونَ النَّاسَ} أَيْ: لَا إِخْلَاصَ لَهُمْ [وَلَا مُعَامَلَةَ مع الله بل إنما يشهدون الناس تَقِيَّةً مِنَ النَّاسِ وَمُصَانَعَةً لَهُمْ] ؛ وَلِهَذَا يَتَخَلَّفُونَ كَثِيرًا عَنِ الصَّلَاةِ الَّتِي لَا يُرَوْن غَالِبًا فِيهَا كَصَلَاةِ الْعِشَاءِ وَقْتَ الْعَتَمَةِ، وَصَلَاةِ الصُّبْحِ فِي وَقْتِ الْغَلَسِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحَيْنِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قَالَ: "أَثْقَلُ الصَّلَاةِ عَلَى الْمُنَافِقِينَ صَلَاةُ الْعِشَاءِ وَصَلَاةُ الْفَجْرِ، وَلَوْ يَعْلَمُونَ مَا فِيهِمَا لَأَتَوْهُمَا وَلَوْ حَبْوًا، وَلَقَدْ هَمَمْتُ أَنْ آمُرَ بِالصَّلَاةِ فَتُقَامَ، ثُمَّ آمُرَ رَجُلًا فَيُصَلِّيَ بِالنَّاسِ، ثُمَّ أَنْطَلِقَ مَعِي بِرِجَالٍ، مَعَهُمْ حُزَمٌ مِنْ حَطَبٍ إِلَى قَوْمٍ لَا يَشْهَدُونَ الصَّلَاةَ، فَأُحَرِّقَ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ.

وَفِي رِوَايَةٍ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، لَوْ عَلِمَ أَحَدُهُمْ أَنَّهُ يَجِدُ عَرْقًا سَمِينًا أَوْ مَرْمَاتَيْنِ حَسَنَتَيْنِ، لَشَهِدَ الصَّلَاةَ، وَلَوْلَا مَا فِي الْبُيُوتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالذُّرِّيَّةِ لَحَرَّقْتُ عَلَيْهِمْ بُيُوتَهُمْ بِالنَّارِ".

وَقَالَ الْحَافِظُ أَبُو يَعْلَى: حَدَّثَنَا مُحَمَّدٌ -هُوَ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُقَدَّمِيُّ -حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ دِينَارٍ، عَنْ إِبْرَاهِيمَ الْهَجَرِيِّ، عَنْ أَبِي الْأَحْوَصِ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَنْ أَحْسَنَ الصَّلَاةَ حَيْثُ يَرَاهُ النَّاسُ، وَأَسَاءَهَا حَيْثُ يَخْلُو، فَتِلْكَ اسْتِهَانَةٌ، اسْتَهَانَ بِهَا رَبَّهُ عز وجل"

وَقَوْلُهُ: {وَلا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلا قَلِيلا} أَيْ: فِي صَلَاتِهِمْ لَا يَخْشَعُونَ [فِيهَا] وَلَا يَدْرُونَ مَا يَقُولُونَ، بَلْ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ لَاهُونَ، وَعَمَّا يُرَادُ بِهِمْ مِنَ الْخَيْرِ مُعْرِضُونَ.

وَقَدْ رَوَى الْإِمَامُ مَالِكٌ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ، تِلْكَ صَلَاةُ الْمُنَافِقِ: يَجْلِسُ يَرْقُبُ الشَّمْسَ، حَتَّى إِذَا كَانَتْ بَيْنَ قَرْنَيِ الشَّيْطَانِ، قَامَ فَنَقَرَ أَرْبَعًا لَا يَذْكُرُ اللَّهَ فِيهَا إِلَّا قَلِيلًا".

وَكَذَا رَوَاهُ مُسْلِمٌ، وَالتِّرْمِذِيُّ، وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ جَعْفَرٍ الْمَدَنِيِّ، عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ، بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: حَسَنٌ صَحِيحٌ. وقد أصبحوا بنفاقهم مذبذبين بين إيمان ظاهر وكفر باطن.

«وَقَوْلُهُ: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ} يَعْنِي: الْمُنَافِقِينَ مُحَيَّرِينَ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكُفْرِ، فَلَا هُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، وَلَا مَعَ الْكَافِرِينَ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا، بَلْ ظَوَاهِرُهُمْ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ، وَبَوَاطِنُهُمْ مَعَ الْكَافِرِينَ. وَمِنْهُمْ مَنْ يَعْتَرِيهِ الشَّكُّ، فَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى هَؤُلَاءِ، وَتَارَةً يَمِيلُ إِلَى أُولَئِكَ {كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا} الْآيَةَ [الْبَقَرَةِ: 20].

قَالَ مُجَاهِدٌ: {مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ} يَعْنِي: أَصْحَابَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ} يَعْنِي: الْيَهُودَ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ، عَنْ نَافِعٍ، عَنِ ابْنِ عُمَرَ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "مَثَلُ الْمُنَافِقِ كَمَثَلِ الشَّاةِ الْعَائِرَةِ بَيْنَ الْغَنَمَيْنِ، تَعِيرُ إِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَإِلَى هَذِهِ مَرَّةً، وَلَا تَدْرِي أَيَّتَهُمَا تَتْبَعُ".

تَفَرَّدَ بِهِ مُسْلِمٌ. وَقَدْ رَوَاهُ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُثَنَّى مَرَّةً أُخْرَى، عَنْ عَبْدِ الْوَهَّابِ، فَوَقَفَ بِهِ عَلَى ابْنِ عُمَرَ، وَلَمْ يَرْفَعْهُ، قَالَ: حَدَّثَنَا بِهِ عَبْدُ الْوَهَّابِ مَرَّتَيْنِ كَذَلِكَ»[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصۡلَحُواْ وَٱعۡتَصَمُواْ بِٱللَّهِ وَأَخۡلَصُواْ دِينَهُمۡ لِلَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَسَوۡفَ يُؤۡتِ ٱللَّهُ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَجۡرًا عَظِيمٗا ١٤٦ مَّا يَفۡعَلُ ٱللَّهُ بِعَذَابِكُمۡ إِن شَكَرۡتُمۡ وَءَامَنتُمۡۚ وَكَانَ ٱللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمٗا ١٤٧﴾[سورة النساء،**144-147**]

[1] -السابق، (437/2-439).

«يَنْهَى تَعَالَى عِبَادَهُ الْمُؤْمِنِينَ عَنْ اتِّخَاذِ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ، يَعْنِي مُصَاحَبَتَهُمْ وَمُصَادَقَتَهُمْ وَمُنَاصَحَتَهُمْ وَإِسْرَارَ الْمَوَدَّةِ إِلَيْهِمْ، وَإِفْشَاءَ أَحْوَالِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَاطِنَةِ إِلَيْهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ} [آلِ عِمْرَانَ: 28] أَيْ: يُحَذِّرُكُمْ عُقُوبَتَهُ فِي ارْتِكَابِكُمْ نَهْيَهُ. وَلِهَذَا قَالَ هَاهُنَا: {أَتُرِيدُونَ أَنْ تَجْعَلُوا لِلَّهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا مُبِينًا} أَيْ: حُجَّةً عَلَيْكُمْ فِي عُقُوبَتِهِ إِيَّاكُمْ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ بْنُ عُيَيْنَةَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ، عَنْ عِكْرِمَةَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَوْلُهُ: {سُلْطَانًا مُبِينًا} [قَالَ] (1) كُلُّ سُلْطَانٍ فِي الْقُرْآنِ حُجَّةٌ. وَهَذَا إِسْنَادٌ صَحِيحٌ. وَكَذَا قَالَ مُجَاهِدٌ، وَعِكْرِمَةُ، وَسَعِيدُ بْنُ جُبَيْرٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ كَعْبٍ الْقُرَظِيِّ، وَالضَّحَّاكُ، وَالسُّدِّيُّ وَالنَّضْرُ بْنُ عَرَبِي.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ، جَزَاءً عَلَى كُفْرِهِمُ الْغَلِيظِ. قَالَ الْوَالِبِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: {فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} أَيْ: فِي أَسْفَلِ النَّارِ. وَقَالَ غَيْرُهُ: النَّارُ دَرَكَاتٌ، كَمَا أَنَّ الْجَنَّةَ دَرَجَاتٌ. "وَقَالَ سُفْيَانُ الثَّوْرِيُّ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ ذَكْوَانَ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ}

قَالَ: فِي تَوَابِيتَ تُرْتَجُ عَلَيْهِمْ. كَذَا رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ، عَنِ ابْنِ وَكِيعٍ، عَنْ يَحْيَى بْنِ يَمَانٍ، عَنْ سُفْيَانَ، بِهِ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنِ الْمُنْذِرِ بْنِ شَاذَانَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنْ عَاصِمٍ، عَنْ أَبِي صَالِحٍ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} قَالَ: الدَّرْكُ الْأَسْفَلُ بُيُوتٌ لَهَا أَبْوَابٌ تُطْبَقُ عَلَيْهِمْ، فَتُوقَدُ مِنْ تَحْتِهِمْ وَمِنْ فَوْقِهِمْ. وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنَا ابْنُ بَشَّارٍ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ، حَدَّثَنَا سُفْيَانُ، عَنْ سَلَمَةَ بْنِ كُهَيْلٍ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ –يَعْنِي ابْنَ مَسْعُودٍ: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} قَالَ: فِي تَوَابِيتَ مِنْ نَارٍ تُطْبَقُ عَلَيْهِمْ. وَرَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْأَشَجِّ، عَنْ وَكِيعٍ، عَنْ سُفْيَانَ، عَنْ سَلَمَةَ، عَنْ خَيْثَمَةَ، عَنِ ابنِ مسعود: {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} قَالَ: فِي تَوَابِيتَ مِنْ حَدِيدٍ مُبْهَمَةٍ عَلَيْهِمْ، وَمَعْنَى قَوْلِهِ: (مُبْهَمَةٍ) أَيْ: مُغْلَقَةٍ مُقْفَلَةٍ لَا يُهْتَدَى لِمَكَانِ فَتْحِهَا.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدثنا أَبِي، حَدَّثَنَا أَبُو سلمة، حدثنا حَمَّادُ بْنُ سلمة، أَخْبَرَنا عَلِيُّ بْنُ يزيد عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ: أَنَّ ابْنَ مسعودٍ سُئِلَ عَنِ الْمُنَافِقِينَ، فقَالَ: يُجْعَلُونَ فِي توابيت مِنْ نارٍ، فَتُطْبَقُ عَلَيْهِمْ فِي أَسْفَلِ دركٍ مِنَ النَّارِ.

{وَلَنْ تَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا} أَيْ: يُنْقِذُهُمْ مِمَّا هُمْ فِيهِ، وَيُخْرِجُهُمْ مِنْ أَلِيمِ الْعَذَابِ.

ثُمَّ أَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ مَنْ تَابَ [مِنْهُمْ] فِي الدُّنْيَا تَابَ عَلَيْهِ وقَبِلَ نَدَمَهُ إِذَا أَخْلَصَ فِي تَوْبَتِهِ وَأَصْلَحَ عَمَلَهُ، وَاعْتَصَمَ بِرَبِّهِ فِي جَمِيعِ أَمْرِهِ، فَقَالَ: {إِلا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ} أَيْ: بَدَّلُوا الرِّيَاءَ بِالْإِخْلَاصِ، فَيَنْفَعُهُمُ الْعَمَلُ الصَّالِحُ وَإِنَّ قَلَّ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: أَخْبَرَنَا يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الْأَعْلَى قِرَاءَةً، أَنْبَأَنَا ابْنُ وَهْبٍ، أَخْبَرَنِي يَحْيَى بْنُ أَيُّوبَ، عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ زَحْرٍ، عَنْ خَالِدِ بْنِ أَبِي عِمْرَانَ، عَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ، عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "أَخْلِصْ دِينَكَ، يَكْفِكَ الْقَلِيلُ مِنَ الْعَمَلِ" .

{فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ} أَيْ: فِي زُمْرَتِهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ {وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيماً} ثُمَّ قَالَ مُخْبِرًا عَنْ غِنَاهُ عَمَّا سِوَاهُ، وَأَنَّهُ إِنَّمَا يُعَذِّبُ الْعِبَادَ بِذُنُوبِهِمْ، فَقَالَ: {مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ} أَيْ: أَصْلَحْتُمُ الْعَمَلَ وَآمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، {وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا} أَيْ: مَنْ شَكَرَ شَكَرَ لَهُ وَمَنْ آمَنَ قَلْبُهُ بِهِ عَلِمَهُ، وَجَازَاهُ عَلَى ذَلِكَ أَوْفَرَ الْجَزَاءِ»[1].

ينهى الله تعالى المؤمنين عن اتخاذ الكافرين أولياء من دون المؤمنين، فينهى عن مصادقتهم ومناصحتهم وإظهار المودّة لهم وكشف أسرار المؤمنين إليهم، محذرًا من عواقب ذلك الشديدة، كما ورد في قوله: {ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء}، إلا في حال الخوف والتقية. ويبيّن تعالى أن هذا الفعل يُعد ذنبًا عظيمًا يستوجب العقوبة، إذ هو بمنزلة إقامة حجة لله على فاعله. ثم يُظهر الله شدة عذابه للمنافقين، الذين هم في الدرك الأسفل من النار، وقد تنوعت الروايات في وصف هذا الدرك، بأنه توابيت من نار تُغلق عليهم، وهي أقسى مراتب العذاب. ومع ذلك، يفتح الله باب التوبة لمن أخلص التوبة والعمل، وبدّل رياءه بإخلاص، واعتصم بالله، فيكون مع المؤمنين ويُؤتى أجرًا عظيمًا. ويختم

[1] –ابن كثير (441/2، 442).

السياق ببيان رحمة الله، وأنه لا يعذب عباده بلا سبب، فإن شكروا وآمنوا فالله غني عن عذابهم، وهو شاكر لمن يشكره، عليم بمن يؤمن به، ومجازيه على ذلك خير الجزاء.

﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ مِنۢ بَعۡدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنۡ أُوتِيتُمۡ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمۡ تُؤۡتَوۡهُ فَٱحۡذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ٤١﴾[سورة المائدة,41]

«نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَاتُ الْكَرِيمَاتُ فِي الْمُسَارِعِينَ فِي الْكُفْرِ، الْخَارِجِينَ عَنْ طَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، الْمُقَدِّمِينَ آرَاءَهُمْ وَأَهْوَاءَهُمْ عَلَى شَرَائِعِ اللَّهِ، عَزَّ وَجَلَّ {مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ} أَيْ: أَظْهَرُوا الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَقُلُوبُهُمْ خَرَابٌ خَاوِيَةٌ مِنْهُ، وَهَؤُلَاءِ هُمُ الْمُنَافِقُونَ. {وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا} أَعْدَاءُ الْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ. وَهَؤُلَاءِ كُلُّهُمْ {سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ} أَيْ: يَسْتَجِيبُونَ لَهُ، مُنْفَعِلُونَ عَنْهُ {سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ} أَيْ: يَسْتَجِيبُونَ لِأَقْوَامٍ آخَرِينَ لَا يَأْتُونَ مَجْلِسَكَ يَا مُحَمَّدُ. وَقِيلَ: الْمُرَادُ أَنَّهُمْ يَتَسَمَّعُونَ الْكَلَامَ، وَيُنْهُونَهُ إِلَى أَقْوَامٍ آخَرِينَ مِمَّنْ لَا يَحْضُرُ عِنْدَكَ، مِنْ أَعْدَائِكَ {يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ} أَيْ: يَتَأَوَّلُونَهُ عَلَى غَيْرِ تَأْوِيلِهِ، وَيُبَدِّلُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ {يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخُذُوهُ وَإِنْ لَمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا}

قِيلَ: نَزَلَتْ فِي أَقْوَامٍ مِنَ الْيَهُودِ، قَتَلُوا قَتِيلًا وَقَالُوا: تَعَالَوْا حَتَّى نَتَحَاكَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ، فَإِنْ أَفْتَانَا بِالدِّيَةِ فَخُذُوا مَا قَالَ، وَإِنْ حَكَمَ بِالْقِصَاصِ فَلَا تَسْمَعُوا مِنْهُ.»[1]

نزلت هذه الآيات في جماعة من المنافقين وأهل الكتاب، ممن يسارعون في الكفر ويخرجون عن طاعة الله ورسوله، مفضلين أهواءهم وآراءهم على شرع الله. فهؤلاء أظهروا الإيمان بألسنتهم وقلوبهم خالية منه، وهم المنافقون. ومنهم أيضًا بعض اليهود، أعداء الإسلام، الذين يستمعون للكذب ويقبلونه، وينقلون الكلام إلى آخرين لا يحضرون مجلس النبي ﷺ، ويحرّفون كلام الله بعد أن فهموه عن مواضعه، عن علم وتعمد. وقد نزلت الآية كذلك في جماعة من اليهود قتلوا شخصًا وأرادوا التحاكم إلى النبي ﷺ لا طلبًا للحق، بل طمعًا في حكم يوافق أهواءهم؛ فإن أفتاهم بما يرضيهم قبلوه، وإن خالف أهواءهم أعرضوا عنه.

[1] السابق، (113/3)

«والصَّحيحُ أَنَّها نزلَتْ في اليهوديين اللَّذَيْن زنيا، وكانوا قَدْ بدَّلُوا كِتابَ اللَّهِ الَّذي بِأَيْدِيهِمْ، مِنَ الْأَمرِ برجْمِ منْ أحْصن منْهمْ، فحرَّفُوا واصطلَحُوا فيما بينهمْ على الْجلْدِ مائة جلْدةٍ، والتَّحميمِ والْإِرْكابِ على حمارٍ مقْلُوبين. فلمَّا وقعتْ تلْكَ الْكائنةُ بعْدَ هجْرةِ النَّبيِّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّم، قالُوا فيما بيْنهُمْ: تعالَوْا حتَّى نتحاكَمَ إِلَيْه، فإِنْ حكم بالْجلْدِ والتَّحميمِ فخُذُوا عنْهُ، واجعلُوهُ حُجَّةً بيْنكُمْ وبين اللَّهِ، ويكُونُ نبيٌّ منْ أَنْبياءِ اللَّهِ قدْ حكَمَ بينكم بذلك، وإِنْ حكَمَ بالرَّجْمِ فلَا تتَّبعُوهُ في ذلكَ.

وقَدْ وردَتِ الْأَحاديثُ بِذلك، فقالَ مالكٌ، عنْ نافعٍ، عنْ عبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمرَ أَنَّهُ قالَ: إِنَّ الْيهُودَ جاءُوا إِلى رسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّمَ، فذكَرُوا لهُ أَنَّ رجُلًا منهمْ وامْرأَةً زنيا، فقالَ لهمْ رسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسلَّمَ: "ما تجدُونَ في التَّوْراةِ في شأْنِ الرَّجْمِ؟ " فقالُوا: نفْضحُهُمْ ويُجلَدون. قالَ عبْدُ اللَّهِ بْنُ سلامٍ: كذبْتُمْ، إِنَّ فيها الرَّجْمَ. فأَتوْا بالتَّوْراةِ فنشرُوها، فوضعَ أَحدُهُمْ يدهُ على آيةِ الرَّجْمِ، فقرأَ ما قبْلها وما بعْدَها، فقالَ لهُ عبْدُ اللَّهِ بْنُ سلامٍ: ارفعْ يدك. فرفعَ يدهُ فإِذا فيها آيةُ الرَّجْمِ، فقالُوا صدق يا محمد، فيهوأَخْرَجاهُ وهذا لفْظُ الْبُخاريِّ. وفي لفْظٍ لهُ: "فقالَ للْيهُودِ: ما تصْنعُونَ بهما؟ " قالُوا: نُسخّم وُجُوهَهُما ونُخْزيهما. قالَ: {فأْتُوا بالتَّوْراةِ فاتْلُوها إِنْ كُنْتُمْ صادقينَ} [آلِ عمْران:93] فجاءُوا، فقالُوا لرجُلٍ منْهمْ ممَّنْ يرْضوْنَ أعور: اقرأْ، فقرأَ حتَّى انْتهى إِلى موْضعٍ منْها فوضع يده عليْه، قالَ: ارْفعْ يدك. فرفع، فإِذا آيةُ الرَّجْمِ تلُوحُ، قالَ: يا مُحمَّدُ، إِنَّ فيها آيةَ الرَّجْمِ، ولكنَّا نتكاتمهُ بيْننا. فأَمرَ بهما فرُجما.»[1].

وقد ورد في روايات أخرى عن هذه الحادثة، أنه سعى اليهود إلى تحريف حكم الزنا الثابت في التوراة، والذي هو الرجم، واستبداله بعقوبات أخف مثل التشهير والسخرية (تسويد الوجوه، الحمل، التجبيه). لكن النبي ﷺ طلب منهم إحضار التوراة وقراءتها، وكشف تلاعبهم حين وضع أحدهم يده على آية الرجم ليخفيها، ففضحه عبد الله بن سلام، الذي كان يهوديًا وأسلم، مما أدى إلى تطبيق الحكم الصحيح، وهو الرجم

﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمۡ يَقُولُونَ نَخۡشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٞۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأۡتِيَ بِٱلۡفَتۡحِ أَوۡ أَمۡرٖ مِّنۡ عِندِهِۦ فَيُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمۡ نَٰدِمِينَ ٥٢﴾ [سورة المائدة,51-52]

---

[1]– ابن كثير، (114/3)

«وَقَوْلُهُ: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} أَيْ: شَكٌّ، وَرَيْبٌ، وَنِفَاقٌ {يُسَارِعُونَ فِيهِمْ} أَيْ: يُبَادِرُونَ إِلَى مُوَالَاتِهِمْ وَمَوَدَّتِهِمْ فِي الْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، {يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ} أَيْ: يَتَأَوَّلُونَ فِي مَوَدَّتِهِمْ وَمُوَالَاتِهِمْ أَنَّهُمْ يَخْشَوْنَ أَنْ يَقَعَ أَمْرٌ مِنْ ظَفَرِ الْكُفَّارِ بِالْمُسْلِمِينَ، فَتَكُونُ لَهُمْ أَيَادٍ عِنْدَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، فَيَنْفَعُهُمْ ذَلِكَ، عِنْدَ ذَلِكَ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ} قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي فَتْحَ مَكَّةَ. وَقَالَ غَيْرُهُ: يَعْنِي الْقَضَاءَ وَالْفَصْلَ {أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} قَالَ السُّدِّيُّ: يَعْنِي ضَرْبَ الْجِزْيَةِ عَلَى الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى {فَيُصْبِحُوا} يَعْنِي: الَّذِينَ وَالَوُا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى مِنَ الْمُنَافِقِينَ {عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ} مِنَ الْمُوَالَاةِ {نَادِمِينَ} أَيْ: عَلَى مَا كَانَ مِنْهُمْ، مِمَّا لَمْ يُجْدِ عَنْهُمْ شَيْئًا، وَلَا دَفَعَ عَنْهُمْ مَحْذُورًا، بَلْ كَانَ عَيْنَ الْمَفْسَدَةِ، فَإِنَّهُمْ فُضِحُوا، وَأَظْهَرَ اللَّهُ أَمْرَهُمْ فِي الدُّنْيَا لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، بَعْدَ أَنْ كَانُوا مَسْتُورِينَ لَا يُدْرَى كَيْفَ حَالُهُمْ. فَلَمَّا انْعَقَدَتِ الْأَسْبَابُ الْفَاضِحَةُ لَهُمْ، تَبَيَّنَ أَمْرُهُمْ لِعِبَادِ اللَّهِ الْمُؤْمِنِينَ، فَتَعَجَّبُوا مِنْهُمْ كَيْفَ كَانُوا يُظْهِرُونَ أَنَّهُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَيَحْلِفُونَ عَلَى ذَلِكَ وَيَتَأَوَّلُونَ، فَبَانَ كَذِبُهُمْ وَافْتِرَاؤُهُمْ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ}

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْقُرَّاءُ فِي هَذَا الْحَرْفِ، فَقَرَأَهُ الْجُمْهُورُ بِإِثْبَاتِ الْوَاوِ فِي قَوْلِهِ: {وَيَقُولُ الَّذِينَ} ثُمَّ مِنْهُمْ مَنْ رَفَعَ {وَيَقُولُ} عَلَى الِابْتِدَاءِ، وَمِنْهُمْ مَنْ نَصَبَ عَطْفًا عَلَى قَوْلِهِ: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} تَقْدِيرُهُ "أَنْ يَأْتِيَ" "وَأَنْ يَقُولَ"، وَقَرَأَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ: {يَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا} بِغَيْرِ وَاوٍ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي مَصَاحِفِهِمْ عَلَى مَا ذَكَرَهُ ابْنُ جَرِيرٍ، قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ} حِينَئِذٍ {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ}[1]

يبيّن المفسر أن "الذين في قلوبهم مرض "هم المنافقون الذين في صدورهم شك ونفاق، يسارعون في موالاة اليهود والنصارى طلباً للحماية والنجاة من تقلب الأحوال، بزعمهم أنهم يخشون أن تصيبهم دائرة، أي نكبة أو هزيمة تحل بالمسلمين فيحتاجون إلى نصرة أولئك الأعداء. لكن الله توعدهم بفضح أمرهم، فقال: {فعسى الله أن يأتي بالفتح}، أي فتح مكة كما قال السدي، أو بالقضاء العادل من عنده، مما يكشف نفاقهم ويجعلهم نادمين على تلك الموالاة التي لم تنفعهم، بل كانت سبباً في فضيحتهم. ويختم بقوله تعالى} :ويقول الذين آمنوا{...، أي سيتعجب المؤمنون حين يرون انكشاف أمر المنافقين الذين كانوا يخفون نفاقهم، وكانوا يحلفون أنهم من المؤمنين، فإذا بالأحداث تفضحهم.

---

[1] –السابق، (133/3)

«واخْتَلَفَ الْمفَسِّرُونَ فِي سَبَبِ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ، فَذَكَرَ السُّدِّي أَنَّهَا نَزَلَتْ فِي رَجُلَيْنِ، قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ: أَمَّا أَنَا فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى ذَلِكَ الْيَهُودِيِّ، فَآوِي إِلَيْهِ وأَتَهَوَّدُ مَعَهُ، لَعَلَّهُ يَنْفَعُنِي إِذَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ حَدَثَ حَادِثٌ! وَقَالَ الْآخَرُ: وَأَمَّا أَنَا فَأَذْهَبُ إِلَى فُلَانٍ النَّصْرَانِيُّ بِالشَّامِ، فَآوِي إِلَيْهِ وَأَتَنَصَّرُ مَعَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ [عَزَّ وجَلَّ] {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ} الْآيَاتِ. وَقَالَ عِكْرِمَةُ: نَزَلَتْ فِي أَبِي لُبَابَةَ بْنِ عَبْدِ الْمُنْذِرِ، حِينَ بَعَثَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى بَنِي قُرَيْظَةَ، فَسَأَلُوهُ: مَاذَا هُوَ صَانِعٌ بِنَا؟ فَأَشَارَ بِيَدِهِ إِلَى حَلْقِهِ، أَيْ: إِنَّهُ الذَّبْحُ. رَوَاهُ ابْنُ جَرِيرٍ»[1]

ويذكر المفسر في رواية أخرى أنها نزلت في كبير المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول «وَقِيلَ: نزلت فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُول، كَمَا قَالَ ابْنُ جرير: حدثنا أَبُو كُرَيْب، حَدَّثَنَا ابْنُ إِدْرِيسَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي، عَنْ \ضشعطيَّةَ بْنِ سَعْدٍ قَالَ: جَاءَ عُبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، مِنْ بَنِي الْخَزْرَجِ، إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ لِي مَوَالِيَ مِنْ يَهُودٍ كَثِيرٌ عَدَدُهُمْ، وَإِنِّي أَبْرَأُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودٍ، وَأَتَوَلَّى اللَّهَ وَرَسُولَهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: إِنِّي رَجُلٌ أَخَافُ الدَّوَائِرَ، لَا أَبْرَأُ مِنْ وِلَايَةِ مَوَالِيَّ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ: "يَا أَبَا الْحُبَابِ، مَا بَخِلْتَ بِهِ مِنْ وِلَايَةِ يَهُودَ عَلَى عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ فَهُوَ لَكَ دُونَهُ". قَالَ: قَدْ قَبِلْتُ! فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ [بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ]} إِلَى قَوْلِهِ: {فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ}.»[2]

﴿وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٦٢﴾ [سورة المائدة,61-62]

«وَقَوْلُهُ: {وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَدْ دَخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ} وَهَذِهِ صِفَةُ الْمُنَافِقِينَ مِنْهُمْ، أَنَّهُمْ يُصَانِعُونَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الظَّاهِرِ وَقُلُوبُهُمْ مُنْطَوِيَةٌ عَلَى الْكُفْرِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَقَدْ دَخَلُوا [بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ] } أَيْ عِنْدَكَ يَا مُحَمَّدُ {بِالْكُفْرِ} أَيْ: مُسْتَصْحِبِينَ الْكُفْرَ فِي قُلُوبِهِمْ، ثُمَّ خَرَجُوا وَهُوَ كَامِنٌ فِيهَا، لَمْ يَنْتَفِعُوا بِمَا قَدْ سَمِعُوا مِنْكَ مِنَ الْعِلْمِ، وَلَا نَجَعَتْ فِيهِمُ الْمَوَاعِظُ وَلَا الزَّوَاجِرُ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَهُمْ [قَدْ] خَرَجُوا بِهِ} فَخَصَّهُمْ بِهِ دُونَ غَيْرِهِمْ. وَقَوْلُهُ: {وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ} أَيْ: وَاللَّهُ عَالِمٌ

[1] – ابن كثير، (133/3).
[2] – نفسه، (133/3)

بِسَرَائِرِهِمْ وَمَا تَنْطَوِي عَلَيْهِمْ ضَمَائِرُهُمْ وَإِنْ أَظْهَرُوا لِخَلْقِهِ خِلَافَ ذَلِكَ، وَتَزَيَّنُوا بِمَا لَيْسَ فِيهِمْ، فَإِنَّ عَالِمَ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ أَعْلَمُ بِهِمْ مِنْهُمْ، وَسَيَجْزِيهِمْ عَلَى ذَلِكَ أَتَمَّ الْجَزَاءِ. وَقَوْلُهُ: {وَتَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يُسَارِعُونَ فِي الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ} أَيْ: يُبَادِرُونَ إِلَى ذَلِكَ مِنْ تَعَاطِي الْمَآثِمِ وَالْمَحَارِمِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَهُمْ بِالْبَاطِلِ {لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} أَيْ: لَبِئْسَ الْعَمَلُ كَانَ عَمَلُهُمْ وَبِئْسَ الِاعْتِدَاءُ اعْتِدَاؤُهُمْ» [1]

يتحدث هذا الشرح عن صفات المنافقين كما وردت في الآيات الكريمة، حيث يُبيِّن أنهم يُظهرون الإيمان بألسنتهم إذا قدموا إلى النبي ﷺ، بينما قلوبهم مملوءة بالكفر الذي لم يفارقهم في دخولهم ولا خروجهم، فهم لم ينتفعوا بما سمعوا من الوحي والعلم، ولم تؤثر فيهم المواعظ. ويؤكد السياق أن الله تعالى أعلم بما يخفونه من نفاق، وإن زَيَّنوا ظواهرهم بخلاف باطنهم. كما تذكر الآيات صورة أخرى من صور فسادهم، إذ يُسارع كثير منهم إلى ارتكاب الآثام والعدوان وأكل أموال الناس بالباطل، وكل ذلك عمل مذموم يستحق أشد الجزاء.

سورة التوبة: سميت هذه السورة بأنها الفاضحة لأنها كشفت عن ألوان مختلفة من النفاق بما تتظاهر به تلك الفئة من نصرة للإسلام والمسلمين في مجال الجهاد خاصة وما قدموا من أعذار وحجج واهية تبرر تأخرهم عن الجهاد رغم أن تأخرهم أفضل من خروجهم لما في ذلك من فتنة نزلت هذه السورة بعد غزوة تبوك لتكشف أمرهم.

﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً ۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ ٨﴾ [سورة التوبة،8]

«يَقُولُ تَعَالَى مُحَرِّضًا لِلْمُؤْمِنِينَ عَلَى مُعَادَاةِ الْمُشْرِكِينَ وَالتَّبَرِّي مِنْهُمْ، وَمُبَيِّنًا أَنَّهُمْ لَا يَسْتَحِقُّونَ أَنْ يَكُونَ لَهُمْ عَهْدٌ لِشِرْكِهِمْ بِاللَّهِ وَكُفْرِهِمْ بِرَسُولِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَهَرُوا عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَأُدِيلُوا عَلَيْهِمْ، لَمْ يُبْقُوا وَلَمْ يَذَرُوا، وَلَا رَاقَبُوا فِيهِمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً.
قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، وَعِكْرِمَةُ، وَالْعَوْفِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: "الْإِلُّ": الْقَرَابَةُ، "وَالذِّمَّةُ": الْعَهْدُ. وَكَذَا قَالَ الضَّحَّاكُ وَالسُّدِّيُّ، كَمَا قَالَ تَمِيمُ بْنُ مُقْبِلٍ:

---

[1]–نفسه، (144/3)

أَفْسَدَ النَّاسَ خُلوفٌ خَلَفُوا ... قَطَعُوا الإلَّ وأعراقَ الرَّحِمِ

وَقَالَ حَسَّانُ بْنُ ثَابِتٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

وجدناهُمُ كَاذِبًا إِلُّهُمْ ... وَذُو الإلِّ وَالْعَهْدِ لَا يَكْذِبُ

وَقَالَ ابْنُ أَبِي نَجِيحٍ، عَنْ مُجَاهِدٍ: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا} قَالَ: اللَّهُ. وَفِي رِوَايَةٍ: لَا يَرْقُبُونَ اللَّهَ وَلَا غَيْرَهُ.

وَقَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: حَدَّثَنِي يَعْقُوبُ، حَدَّثَنَا ابْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ سُلَيْمَانَ، عَنْ أَبِي مِجْلَزٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا وَلَا ذِمَّةً} مِثْلُ قَوْلِهِ: "جِبْرَائِيلَ"، "مِيكَائِيلَ"، "إِسْرَافِيلَ"، [كَأَنَّهُ يَقُولُ: يُضِيفُ "جَبْرَ"، وَ"مِيكَا"، وَ"إِسْرَافَ"، إِلَى "إِيلَ"، يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ: {لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلا}] كَأَنَّهُ يَقُولُ: لَا يَرْقُبُونَ اللَّهَ. وَالْقَوْلُ الْأَوَّلُ أَشْهَرُ وَأَظْهَرُ، وَعَلَيْهِ الْأَكْثَرُ.

وَعَنْ مُجَاهِدٍ أَيْضًا: "الْإِلُّ": الْعَهْدُ. وَقَالَ قَتَادَةُ: "الْإِلُّ": الْحِلْفُ.

﴿ٱشۡتَرَوۡاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنٗا قَلِيلٗا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٩ لَا يَرۡقُبُونَ فِي مُؤۡمِنٍ إِلّٗا وَلَا ذِمَّةٗۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُعۡتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخۡوَٰنُكُمۡ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ١١﴾ [سورة التوبة,9-11]

يبين الله تعالى في هذه الآيات أنه لا ينبغي أن يكون للمشركين عهد عند الله ورسوله، لأنهم لا يراعون في المؤمنين لا قرابة (إِلًّا) ولا عهداً (ذمّة)، فهم أهل غدر وخيانة، ولو تمكنوا من المسلمين لما رحموا فيهم قريباً ولا صاحب عهد. وقد نقل المفسرون عن عدد من السلف تفسير "الإلّ" بأنه *القرابة* (كما قال ابن عباس والضحاك والسدي)، وقيل *العهد*، وقيل *الحلف*، وهو اختلاف تنوع يدل على أنهم لا يراعون أي روابط إنسانية أو دينية. وقد استُشهد بأشعار عربية قديمة لتوضيح معنى "الإلّ"، منها بيت تميم بن مقبل، وفيه دلالة على أن "الإلّ" قد يُراد به النسب والقرابة. كما ورد بيت لحسان بن ثابت يؤكد أن صاحب العهد والقرابة لا يكذب، بخلاف حال المشركين.

وقد ذهب بعض المفسرين، كأبي مجلز ومجاهد، إلى أن "الإلّ" في قوله: {لا يرقبون في مؤمن إلًّا ولا ذمّة} يُراد به الله سبحانه (باعتبار أن "إيل" تعني الله في اللغة العبرية، كما في جبرائيل

وميكائيل). لكن جمهور المفسرين رأوا أن المعنى الظاهر – أي القرابة والعهد – هو الأشهر والأرجح.

وتُختَتم الفقرة ببيان عدوان المشركين الذين اشتروا بآيات الله ثمنا قليلا، وصدّوا عن سبيله، فلذلك كانوا معتدين. ومع ذلك، يُفتح لهم باب التوبة، فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة، صاروا إخوانًا للمؤمنين في الدين، فيكون ذلك غاية في الرحمة والعدل من الإسلام.

﴿إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥﴾ [سورة التوبة,45]

وعطف "وارتابت قلوبكم" على الصلة هي "لا يؤمنون بالله واليوم الآخر" يدل على ان الارتياب ارتياب فغي ظهور امر النبي صلى الله عليه وسلم فلأجل ذلك الارتياب كانوا ذوي وجهين معه فأظهروا الإسلام لئلا يفوتهم ما يحصل للمسلمين من العز والنفع على تقدير ظهور أمر الإسلام، وأبطنوا الكفر حفاظا على دينهم الفاسد ، وعلى صلتهم باهل ملتهم[1]، كما قال تعالى:{ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين}

﴿۞وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ٤٦﴾[سورة التوبة,46]

وزيادة قوله " مع القاعدين" مذمة لهم لأن القاعدين هم الذين شأنهم القعود عن الغزو وهم الضعفاء من صبيان ونساء كالعمي والزمنى"[2]

﴿لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧﴾ [سورة التوبة,47]

---

[1] ابن كثير(115/4)

[2] الألوسي، (161/4-162)

نزلت في بعض المنافقين استأذنوا النبي صلى الله عليه وسلم في التخلف عن تبوك ولم يبدوا عذرا يمنعهم من الغزو ولكنهم صرحوا بان الخروج يفتنهم لمحبة أموالهم وأهليهم ففضح الله أمرهم بأنهم منافقون[1]

﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا وَّهُمْ فَرِحُونَ ٥٠﴾ [سورة التوبة,50]

« يُعْلِمُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى نَبِيَّهُ بِعَدَاوَةِ هَؤُلَاءِ لَهُ؛ لِأَنَّهُ مَهْمَا أَصَابَهُ مِنْ {حَسَنَةٌ} أي: فتح ونصر وظفر عَلَى الْأَعْدَاءِ، مِمَّا يَسُرُّهُ وَيَسُرُّ أَصْحَابَهُ، سَاءَهُمْ ذَلِكَ، {وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ} أَيْ: قَدِ احْتَرَزْنَا مِنْ مُتَابَعَتِهِ مِنْ قَبْلِ هَذَا، {وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ} فَأَرْشَدَ اللَّهُ تَعَالَى رَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، إِلَى جَوَابِهِمْ فِي عَدَاوَتِهِمْ هَذِهِ التَّامَّةِ، فَقَالَ: {قُلْ} أَيْ: لَهُمْ {لَنْ يُصِيبَنَا إِلا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا} أَيْ: نَحْنُ تَحْتَ مَشِيئَةِ اللَّهِ، وَقَدَرِهِ، {هُوَ مَوْلانَا} أَيْ: سَيِّدُنَا وَمَلْجَؤُنَا {وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} أَيْ: وَنَحْنُ مُتَوَكِّلُونَ عَلَيْهِ، وَهُوَ حَسْبُنَا وَنِعْمَ الْوَكِيلُ.»[2].

تشرح هذه الفقرة موقف المنافقين أو الكافرين من النبي ﷺ وأصحابه، وتُبيّن كيف أن الله تعالى يُعلِم نبيَّه بعداوتهم الخفية. فهم يحزنون إذا نال المسلمون خيراً كالنصر والظفر، ويفرحون إذا أصابتهم مصيبة، ويزعمون أنهم قد احتاطوا بعدم اتباع النبي ﷺ. ويُرشد الله نبيَّه إلى الرد عليهم بأن ما يصيب المؤمنين لا يكون إلا بما قدَّره الله، فهم في حماية الله وتحت مشيئته، وأن الله هو مولاهم وسيدهم، فعليه وحده يعتمد المؤمنون، وهو كافيهم ونعم الوكيل.

﴿وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ٥٦ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْاْ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ٥٧ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُواْ مِنْهَا رَضُواْ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْاْ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ٥٨﴾ [سورة التوبة,56-58]

«يَقُولُ تَعَالَى: {وَمِنْهُمْ} أَيْ وَمِنَ الْمُنَافِقِينَ {مَنْ يَلْمِزُكَ} أَيْ: يَعِيبُ عَلَيْكَ {فِي} قَسْمِ {الصَّدَقَاتِ} إِذَا فَرَّقْتَهَا، وَيَتَّهِمُكَ فِي ذَلِكَ، وَهُمُ الْمُتَّهَمُونَ الْمَأْبُونُونَ، وَهُمْ مَعَ هَذَا لَا يُنْكِرُونَ لِلدِّينِ، وَإِنَّمَا يُنْكِرُونَ لِحَظِّ أَنْفُسِهِمْ؛ وَلِهَذَا إِنْ {أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ} أَيْ: يَغْضَبُونَ لِأَنْفُسِهِمْ.

[1] نفسه

[2] –ابن كثير (4/ 161–162).

قَالَ ابْنِ جُرَيْج: أَخْبَرَنِي دَاوُدُ بْنُ أَبِي عَاصِمٍ قَالَ: أُتِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِصَدَقَةٍ، فَقَسَمَهَا هَاهُنَا وَهَاهُنَا حَتَّى ذَهَبَتْ. قَالَ: وَوَرَاءَهُ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ فَقَالَ: مَا هَذَا بِالْعَدْلِ؟ فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

وَقَالَ قَتَادَةُ فِي قَوْلِهِ: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِي الصَّدَقَاتِ} يَقُولُ: وَمِنْهُمْ مَنْ يَطْعَنُ عَلَيْكَ فِي الصَّدَقَاتِ.

وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ رَجُلًا مِنْ [أَهْلِ] الْبَادِيَةِ حَدِيثَ عَهْدٍ بِأَعْرَابِيَّةٍ، أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ يَقْسِمُ ذَهَبًا وَفِضَّةً، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ لَئِنْ كَانَ اللَّهُ أَمَرَكَ أَنْ تَعْدِلَ، مَا عَدَلْتَ. فَقَالَ نَبِيُّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "وَيْلَكَ فَمَنْ ذَا يَعْدِلُ عَلَيْكَ بَعْدِي". ثُمَّ قَالَ نَبِيُّ اللَّهِ: "احْذَرُوا هَذَا وَأَشْبَاهَهُ، فَإِنَّ فِي أُمَّتِي أَشْبَاهَ هَذَا، يَقْرَءُونَ الْقُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، فَإِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ، ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ ثُمَّ إِذَا خَرَجُوا فَاقْتُلُوهُمْ".

وَذُكِرَ لَنَا أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَقُولُ: "وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُعْطِيكُمْ شَيْئًا وَلَا أَمْنَعُكُمُوهُ، إِنَّمَا أَنَا خَازِنٌ". وَهَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ قَتَادَةُ شَبِيهٌ بِمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانِ مِنْ حَدِيثِ الزُّهْرِيِّ، عَنْ أَبِي سَلَمَةَ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ فِي قِصَّةِ ذِي الْخُوَيْصِرَةِ –وَاسْمُهُ حُرْقُوصٌ –لَمَّا اعْتَرَضَ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَسَمَ غَنَائِمَ حُنَيْنٍ، فَقَالَ لَهُ: اعْدِلْ، فَإِنَّكَ لَمْ تَعْدِلْ. فَقَالَ: "لَقَدْ خِبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَكُنْ أَعْدِلُ". ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ رَآهُ مُقَفِّيًا إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضِئْضِئِ هَذَا قَوْمٌ يَحْقِرُ أَحَدُكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّةِ، فَأَيْنَمَا لَقِيتُمُوهُمْ فَاقْتُلُوهُمْ، فَإِنَّهُمْ شَرُّ قَتْلَى تَحْتَ أَدِيمِ السَّمَاءِ" وَذَكَرَ بَقِيَّةَ الْحَدِيثِ»[1]

يفسر المفسر الآية بأن بعض المنافقين كانوا يعيبون النبي صلى الله عليه وسلم ويتهمونه بالجور في توزيع الصدقات، وليس لدافع ديني أو شرعي، وإنما لدوافع شخصية تتعلق بحظوظ أنفسهم. فإن أُعطوا من الصدقات رضوا، وإن لم يُعطَوا سخطوا، وهذا يدل على نفاقهم. ثم يُورد المفسر عدة آثار وأحاديث توضح سياق نزول الآية، منها:

- حديث عن رجل من الأنصار قال: "ما هذا بالعدل"، حين رأى قسمة النبي، فنزلت الآية.
- قصة رجل من أهل البادية قال: "ما عدلت"، فرد عليه النبي ﷺ بشدة، مبيناً أن العدل لا يُنال بعده.

[1] – ابن كثير، (164/4).

- ثم يربط هذا بحديث ذي الخويصرة (حرقْوص)، الذي اعترض على قسمة غنائم حنين وقال: "اعدل"، فأنكر عليه النبي بشدة، وقال إنه سيخرج من ذريته قوم متشددون يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، وأمر بقتالهم.

﴿وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ٦١﴾ [سورة التوبة,61]

"عطف ذكر فيه خلق آخر من أخلاق المنافقين، وهو تعللهم على ما يعاملهم به النبي والمسلمون من الحذر وما يطلعون عليه من فلتات نفاقهم يزعمون أن ذلك أرجاف من المرجفين بهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم وانه يصدق القالة فيهم وتهمهم بما يبلغه عنهم مما هم منه براء، يعتذرون بذلك للمسلمين ، وفيه زيادة الأذى للرسول صلى الله عليه وسلم وإلقاء الشك في نفوس المسلمين في كمالات عليه الصلاة والسلام ...وهؤلاء فريق كانوا يقولون في حق النبي صلى الله عليه وسلم ما يؤذيه إذا بلغه وقد عدد من هؤلاء المنافقين القائلين ذلك: الجلاس بن سويد، قبل توبته، ونبتل بن الحارث، وعتاب بن قشير، ووديعة بن نبيهم ثابت . فمنهم من قال: إن كان ما يقول محمد حق فنحن شر من الحمير، وقال بعضهم: نقول فيه ماشئنا ثم نذهب إليه ونحلف أنا ما قلنا فيقبل قولنا.

{يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه} فالجملة مستأنفة استئنافا ابتدائيا لإعلام الرسول صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بأن المنافقين يحلفون الأيمان الكاذبة، فلا تغرهم أيمانهم وضمير يحلفون عائد إلى الذين يؤذون النبي.»[1]

وهذا مما يبين لؤمهم وبغضهم للنبي صلى الله عليه وسلم فهم الذين سعوا إلى الحاق الضرر به كلما اتيح لهم ذلك ومع ذلك يتقمصون شخص المتضرر وينسبون الأذى له صلى الله عليه وسلم فينسب الله لهم ذلك وينفيه عن نبي الرحمة ويتوعد المنافقين بعذاب أليم وهذا ما يخافون أن ينزل من القرآن ما يبين ما في قلوبهم من أمراض الغل والكراهية والبخل وأن مصيرهم إلى النار ولهم عذاب مقيم

﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَـٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ٦٥ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ٦٦ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ بَعْضُهُم

[1] التحرير والتنوير لمحمد الطاهر ابن عاشور، ط 2006 ، (241/10ـــ242)

مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ ﴾[سورة التوبة,64-68]

«يقولُ تعالى ذكره :يَخْشَى المنافقون أن تَنزِلَ فيهم سورةٌ ﴿تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.يقول :تُظهِرُ المؤمنين على ما في قلوبِهم.

وقيل :إن الله أنزَل هذه الآيةَ على رسولِ اللهِ ﷺ؛ لأن المنافقين كانوا إذا عابوا رسول اللهِ ﷺ وذكروا شيئًا من أمرِه وأمرِ المسلمين، قالوا :لعل الله لا يُفْشِي سِرَّنا.فقال اللهُ لنبيِّه محمدٍ ﷺ :قلْ لهم: ﴿اسْتَهْزِئُوا﴾. مُتَهَدِّدًا لهم مُتَوَعِّدًا، ﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾.

وبنحوِ الذي قُلنا في ذلك قال أهلُ التأويلِ. ذكرُ مَن قال ذلك:

حدَّثنا محمدُ بنُ عمرٍو، قال :ثنا أبو عاصمٍ، عن عيسى، عن ابن أبي نَجيحٍ، عن مجاهدٍ :﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ﴾.قال :يقولون القولَ بينَهم، ثم يقولون :عسى اللهُ أن لا يُفْشِيَ سِرَّنا علينا.

حدَّثنا القاسمُ، قال :ثنا الحسينُ، قال :ثنى حَجَّاجُ، عن ابن جُرَيْجٍ، عن مجاهدٍ مثلَه، إلَّا أنه قال :سِرَّنا هذا.

وأما قولُه :﴿إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ﴾، فإنه يعنى به :إن اللَّهَ مُظْهِرٌ عليكم أيُّها المُنافِقون ما كنتم تَحْذَرون أن تُظهِروه، فأظهَر اللهُ ذلك عليهم وفَضَحَهم، فكانت هذه السورةُ تُدْعَى الفاضحةَ.

حدَّثنا بشرٌ، قال :ثنا يزيدُ، قال :ثنا سعيدٌ، عن قتادةَ، قال :كانت تُسَمَّى هذه السورةُ الفاضحةَ؛ فاضحةَ المنافِقين».[1]

﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨﴾ [سورة التوبة,67-68]

[1] – أبو جعفر محمد بن جرير الطبري (224 – 310 هـ)، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن تح: د عبد الله بن عبد المحسن التركي بالتعاون مع: مركز البحوث والدراسات الإسلامية بدار هجر – د عبد السند حسن يمامة الناشر: دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان – القاهرة، مصر الطبعة: الأولى، 1422 هـ – 2001 م، (11/ 541-543)

« يَقُولُ تَعَالَى مُنْكِرًا عَلَى الْمُنَافِقِينَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى خِلَافِ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ، وَلَمَّا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ، كَانَ هَؤُلَاءِ {يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ} أَيْ: عَنِ الْإِنْفَاقِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، {نَسُوا اللَّهَ} أَيْ: نسوا ذكر الله، {فَنَسِيَهُمْ} أي: عاملهم مُعَامَلَةَ مَنْ نَسِيَهُمْ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا} [الْجَاثِيَةِ:34] {إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ} أَيْ: الْخَارِجُونَ عَنْ طَرِيقِ الْحَقِّ، الدَّاخِلُونَ فِي طَرِيقِ الضَّلَالَةِ. وَقَوْلُهُ: {وَعَدَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ} أَيْ: عَلَى هَذَا الصَّنِيعِ الَّذِي ذُكِرَ عَنْهُمْ،{خَالِدِينَ فِيهَا} أَيْ: مَاكِثِينَ فِيهَا مُخَلَّدِينَ، هُمْ وَالْكُفَّارُ، {هِيَ حَسْبُهُمْ} أَيْ: كِفَايَتُهُمْ فِي الْعَذَابِ، {وَلَعَنَهُمُ اللَّهُ} أَيْ: طَرَدَهُمْ وَأَبْعَدَهُمْ} {وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ}»[1]

يظهر عظيم خطرهم بتوافقهم منافقين ومنافقات على أن يتآمروا بالمنكر ويتناهوا عن المعروف بما يحقق مبتغاهم دون أن يكشف أمرهم، فينزل الوحي بما يحذرون وينبؤهم أنهم في العذاب مخلدون، ولعل مما يدفع به شرهم ويتصدى به لخطرهم هو الأمر بجهادهم مع الكفار فهم في زمرتهم.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ إِسۡلَٰمِهِمۡ وَهَمُّواْ بِمَا لَمۡ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنۡ أَغۡنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضۡلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيۡرٗا لَّهُمۡۖ وَإِن يَتَوَلَّوۡاْ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۚ وَمَا لَهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ مِن وَلِيّٖ وَلَا نَصِيرٖ ٧٤﴾[سورة التوبة,73-74]

فالأمر بجهادهم والغلظة عليهم متعلق بفضحهم وكف أذاهم لئلا يتحقق مرادهم في دنياهم وأن مصيرهم إلى النار فكلما عظم خطرهم فضحوا وبشروا بعقاب عاجل وآخر آجل كما جاء في تفسير الآيتين

«أَمَرَ تَعَالَى رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجِهَادِ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ وَالْغِلْظَةِ عَلَيْهِمْ، كَمَا أَمَرَهُ بِأَنْ يَخْفِضَ جَنَاحَهُ لِمَنِ اتَّبَعَهُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَخْبَرَهُ أَنَّ مَصِيرَ الْكُفَّارِ وَالْمُنَافِقِينَ إِلَى النَّارِ فِي الدَّارِ الْآخِرَةِ. وَقَدْ تَقَدَّمَ عَنْ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَنَّهُ قَالَ: بَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَرْبَعَةِ أَسْيَافٍ، سَيْفٍ لِلْمُشْرِكِينَ: {فَإِذَا انْسَلَخَ الأشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ} [التَّوْبَةِ:5] وَسَيْفٍ لِلْكُفَّارِ أَهْلِ الْكِتَابِ: {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ

[1] –ابن كثير، (173/4)

دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ} [التَّوْبَة:29] وَسَيْفٍ لِلْمُنَافِقِينَ: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} [التَّوْبَة:73، التَّحْرِيم:9] وَسَيْفٍ لِلْبُغَاة: {فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللَّهِ} [الْحُجُرَات:9] وَهَذَا يَقْتَضِي أَنَّهُمْ يُجَاهَدُونَ بِالسُّيُوفِ إِذَا أَظْهَرُوا النِّفَاقَ، وَهُوَ اخْتِيَارُ ابْنِ جَرِيرٍ. وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ} قَالَ: بِيَدِهِ، [فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِلِسَانِهِ فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَبِقَلْبِهِ] فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلْيَكْفَهِرَّ فِي وَجْهِهِ.

وَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: أَمَرَهُ اللَّهُ تَعَالَى بِجِهَادِ الْكُفَّارِ بِالسَّيْفِ، وَالْمُنَافِقِينَ بِاللِّسَانِ، وَأَذْهَبَ الرِّفْقَ عَنْهُمْ.

وَقَالَ الضَّحَّاكُ: جَاهِدِ الْكُفَّارَ بِالسَّيْفِ، وَاغْلُظْ عَلَى الْمُنَافِقِينَ بِالْكَلَامِ، وَهُوَ مُجَاهَدَتُهُمْ. وَعَنْ مُقَاتِلٍ، وَالرَّبِيعِ مِثْلُهُ. وَقَالَ الْحَسَنُ وَقَتَادَةُ: مُجَاهَدَتُهُمْ إِقَامَةُ الْحُدُودِ عَلَيْهِمْ.»[1].

يأمر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وسلم بجهاد الكفار والمنافقين، ويحثه على الشدة معهم، حمايةً للمجتمع من أذاهم، وفضحاً لمقاصدهم الخفية، مع بيان أن مصيرهم النار في الآخرة. وقد رُوي عن علي بن أبي طالب أن النبي ﷺ بُعث بأربعة سيوف: للمشركين، وللكفار من أهل الكتاب، وللمنافقين، وللبغاة، وكل بحسب حاله، فكان المنافقون يُجاهدون إذا أظهروا نفاقهم. واختلفت أقوال السلف في نوع هذا الجهاد: فبعضهم قال هو بالسيف، وبعضهم قال باللسان، وآخرون قالوا بإقامة الحجة والحدود، بحسب طبيعة نفاقهم وظروفهم، مما يدل على شمولية مفهوم الجهاد في دفع الأذى وحماية الدين والمجتمع

ولعل الأمر بجهادهم والغلظة عليهم هو نتيجة إساءتهم وتماديهم في التطاول على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين وكذبهم عليه وادعاؤهم العزة كما فعل ابن ابي ابن سلول

«وَقَدْ يُقَالُ: إِنَّهُ لَا مُنَافَاةَ بَيْنَ هَذِهِ الْأَقْوَالِ، لِأَنَّهُ تَارَةً يُؤَاخِذُهُمْ بِهَذَا، وَتَارَةً بِهَذَا بِحَسَبِ الْأَحْوَالِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

وَقَوْلُهُ: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا وَلَقَدْ قَالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلَامِهِمْ} قَالَ قَتَادَةُ: نَزَلَتْ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وَذَلِكَ أَنَّهُ اقْتَتَلَ رَجُلَانِ: جُهَنِيٌّ وَأَنْصَارِيٌّ، فعلا الجهني على الأنصاري، فقال عبد للَّهِ لِلْأَنْصَارِ: أَلَا تَنْصُرُوا أَخَاكُمْ؟ وَاللَّهِ مَا مَثَلُنَا وَمَثَلُ مُحَمَّدٍ إِلَّا كَمَا قَالَ الْقَائِلُ: "سمِّنْ كَلْبَكَ يَأْكُلْكَ"، وَقَالَ:

[1]–ابن كثير، (178/4).

{لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأعَزُّ مِنْهَا الأذَلَّ} [الْمُنَافِقُون:8] فَسَعَى بِهَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَسَأَلَهُ، فَجَعَلَ يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا قَالَهُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ هَذِهِ الْآيَةَ

وَرَوَى إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ بْنِ عُقْبَةَ، عَنْ عَمِّهِ مُوسَى بْنِ عُقْبَةَ قَالَ: فَحَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ الْفَضْلِ، أَنَّهُ سَمِعَ أَنَسَ بْنَ مَالِكٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، يَقُولُ: حَزِنْتُ عَلَى مَنْ أُصِيبَ بِالْحَرَّةِ مِنْ قَوْمِي، فَكَتَبَ إِلَيَّ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ، وَبَلَغَهُ شِدَّةُ حُزْنِي، يَذْكُرُ أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: "اللَّهُمَّ، اغْفِرْ لِلْأَنْصَارِ وَلِأَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ" -وَشَكَّ ابْنُ الْفَضْلِ فِي أَبْنَاءِ أَبْنَاءِ الْأَنْصَارِ -قَالَ ابْنُ الْفَضْلِ: فَسَأَلَ أَنَسًا بَعْضُ مَنْ كَانَ عِنْدَهُ عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ، فَقَالَ: هُوَ الَّذِي يَقُولُ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "أَوْفَى اللَّهُ لَهُ بِأُذُنِهِ". وَذَاكَ حِينَ سَمِعَ رَجُلًا مِنَ الْمُنَافِقِينَ يَقُولُ -وَرَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَخْطُبُ -: لَئِنْ كَانَ هَذَا صَادِقًا فَنَحْنُ شَرٌّ مِنَ الْحَمِيرِ، فَقَالَ زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ: فَهُوَ وَاللَّهِ صَادِقٌ، وَلَأَنْتَ شَرٌّ مِنَ الْحِمَارِ. ثُمَّ رُفِعَ ذَلِكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ، فَجَحَدَهُ الْقَائِلُ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ تَصْدِيقًا لِزَيْدٍ-يَعْنِي قَوْلَهُ: {يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ مَا قَالُوا} الْآيَةَ»[1].

﴿ٱلۡأَعۡرَابُ أَشَدُّ كُفۡرٗا وَنِفَاقٗا وَأَجۡدَرُ أَلَّا يَعۡلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٩٧ وَمِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغۡرَمٗا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٩٨﴾ **[سورة التوبة,97-98]**

«جاء في تفسير الشعراوي لهاتين الآيتين:"... وكان الواحد من الأعراب يؤدي نصاب الزكاة وهو كاره ويعتبرها مغرما، ومنهم من كان يتمنى أن تصيب المؤمنين كارثة؛ حتى لا يأخذوا منه الزكاة، وكان بعض من الأعراب يتربصون بالمسلمين الدوائر؛ لأنهم كارهون لدفع الزكاة ويظنون أنها غرامة، ولا يستوعبون أنها تكتب في الميزان، وأنها تطهير ونماء للمال، وأنها حمل لعجز العاجز، إن عجز الواحد منهم؛ فسوف يجد من يحمله. والذي يتربص بكم الدوائر ولا يفطن لحكمة الأخذ منه، هو الذي تأتي عليه دائرة السوء مصداقا لقول الحق: {عليهم دائرة السوء والله سميع عليم}؛ لأن أيا منهم لم يفطن وينتبه لقيمة الوجود في المجتمع الإيماني الذي يعطي له الزكاة إن عجز، فإن تربصت الدائرة بمن يأخذ منك، ولن تفطن الى أن من يأخذ منك يصح أن يأخذ من الغير لك؛ فسوف تأتي الدائرة عليك

[1] -ابن كثير، (4/178-179)

وقوله الحق: {عليهم دائرة السوء} تبدو كأنها دعوة، ومن الذي يدعو؟ إنه الله. وهناك فرق بين أن يدعو غير قادر و بين أن يدعو قادرا إن كان ربنا هو من يقول: {عليهم دائرة السوء} ، فدائرة السوء قادمة لهم لا محالة...»[1].

في تفسيره لهاتين الآيتين، يبرز الشيخ الشعراوي موقف بعض الأعراب من الزكاة، موضحاً أنهم كانوا يؤدونها كارهين، ويعتبرونها مغرماً لا طاعة، بل كان بعضهم يتمنى أن يصيب المؤمنين سوء حتى يُعفى من أدائها. ويرى الشعراوي أن هؤلاء الأعراب لم يدركوا حكمة الزكاة، فهي ليست غرامة، بل تطهير للنفس، وزكاة للمال، وضمان اجتماعي يُعين به العاجز عند الحاجة. ومن يتربص بالمؤمنين الشر بسبب الزكاة، فإن دائرة السوء ستدور عليه، كما جاء في قوله تعالى: {عليهم دائرة السوء}، وهو وعيد من الله، والدعاء إذا صدر من القادر – وهو الله – فهو حتمي الوقوع. فالغفلة عن حكمة الزكاة تقود صاحبها إلى الهلاك، لأنه لم يدرك أنه جزء من مجتمع إيماني يتكافل أفراده، ويُعين بعضهم بعضاً في الشدة

﴿وَمِمَّنۡ حَوۡلَكُم مِّنَ ٱلۡأَعۡرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعۡلَمُهُمۡۖ نَحۡنُ نَعۡلَمُهُمۡۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيۡنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٖ ١٠١﴾ [سورة التوبة,101]

«يُخْبِرُ تَعَالَى رَسُولَهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ، أَنَّ فِي أَحْيَاءِ الْعَرَبِ مِمَّنْ حَوْلَ الْمَدِينَةِ مُنَافِقِينَ، وَفِي أَهْلِ الْمَدِينَةِ أَيْضًا مُنَافِقُونَ {مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ} أَيْ: مَرَنُوا وَاسْتَمَرُّوا عَلَيْهِ: وَمِنْهُ يُقَالُ: شَيْطَانٌ مَرِيدٌ وَمَارِدٌ، وَيُقَالُ: تَمَرَّدَ فُلَانٌ عَلَى اللَّهِ، أَيْ: عَتَا وَتَجَبَّرَ، وَقَوْلُهُ: {لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ} لَا يُنَافِي قَوْلَهُ تَعَالَى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} الْآيَةَ [مُحَمَّدٍ:30] ؛لِأَنَّ هَذَا مِنْ بَابِ التَّوَسُّمِ فِيهِمْ بِصِفَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا، لَا أَنَّهُ يَعْرِفُ جَمِيعَ مَنْ عِنْدَهُ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ عَلَى التَّعْيِينِ.

وَقَدْ كَانَ يَعْلَمُ أَنَّ فِي بَعْضِ مَنْ يُخَالِطُهُ مِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ نِفَاقًا، وَإِنْ كَانَ يَرَاهُ صَبَاحًا وَمَسَاءً، وَشَاهِدُ هَذَا بِالصِّحَّةِ مَا رَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي مُسْنَدِهِ حَيْثُ قَالَ: حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ، حَدَّثَنَا شُعْبَةُ، عَنِ النُّعْمَانِ بْنِ سَالِمٍ، عَنْ رَجُلٍ، عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّهُ لَيْسَ لَنَا أَجْرٌ بِمَكَّةَ، فَقَالَ: لَتَأْتِيَنَّكُمْ أُجُورُكُمْ وَلَوْ كُنْتُمْ فِي جُحْرِ ثَعْلَبٍ وَأَصْغَى إِلَيَّ رَسُولُ

---

[1] تفسيرالشعراوي، محمد متولي الشعراوي، ط2012، (5414/5415)

اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِرَأْسِهِ فَقَالَ: "إِنَّ فِي أَصْحَابِي مُنَافِقِينَ والمرجفين من الكلام بما لا صحة له ومن مثلهم صدر هذا الكلام الذي سمعه جبير بن مطعم، وتقدم في تفسير قوله ﴿وَهَمُّوا بِما لَمْ يَنالُوا﴾ أنه ﷺ أعلم حذيفة بأعيان أربعة عشر أو خمسة عشر منافقا، وهذا تخصيص لا يقتضي أنه اطلع على أسمائهم وأعيانهم كلهم، والله أعلم»[1]

﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠﴾[سورة التوبة,107-110]

«سَبَبُ نُزُولِ هَذِهِ الْآيَاتِ الْكَرِيمَاتِ: أَنَّهُ كَانَ بِالْمَدِينَةِ قَبْلَ مَقْدَمِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَيْهَا رَجُلٌ مِنَ الْخَزْرَجِ يُقَالُ لَهُ: "أَبُو عَامِرٍ الراهبُ"، وَكَانَ قَدْ تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَقَرَأَ عِلْمَ أَهْلِ الْكِتَابِ، وَكَانَ فِيهِ عِبَادَةٌ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَلَهُ شَرَفٌ فِي الْخَزْرَجِ كَبِيرٌ. فَلَمَّا قَدِمَ رسولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مُهَاجِرًا إِلَى الْمَدِينَةِ، وَاجْتَمَعَ الْمُسْلِمُونَ عَلَيْهِ، وَصَارَتْ لِلْإِسْلَامِ كَلِمَةٌ عَالِيَةٌ، وَأَظْهَرَهُمُ اللَّهُ يَوْمَ بَدْرٍ، شَرِقَ اللَّعِينُ أَبُو عَامِرٍ بِرِيقِهِ، وَبَارَزَ بِالْعَدَاوَةِ، وَظَاهَرَ بِهَا، وَخَرَجَ فَارًّا إِلَى كُفَّارِ مَكَّةَ مِنْ مُشْرِكِي قُرَيْشٍ فَأَلَّبَهُم عَلَى حَرْبِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاجْتَمَعُوا بِمَنْ وَافَقَهُمْ مِنْ أَحْيَاءِ الْعَرَبِ، وَقَدِمُوا عَامَ أُحُدٍ، فَكَانَ مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ مَا كَانَ، وَامْتَحَنَهُمُ اللَّهُ، وَكَانَتِ الْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ.

وَكَانَ هَذَا الْفَاسِقُ قَدْ حَفَرَ حَفَائِرَ فِيمَا بَيْنَ الصَّفَّيْنِ، فَوَقَعَ فِي إِحْدَاهُنَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأُصِيبَ ذَلِكَ الْيَوْمَ، فَجُرِحَ فِي وَجْهِهِ وكُسِرت رباعِيَته الْيُمْنَى السُّفْلَى، وشُجَّ رَأْسُهُ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ.

وَتَقَدَّمَ أَبُو عَامِرٍ فِي أَوَّلِ الْمُبَارَزَةِ إِلَى قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَخَاطَبَهُمْ وَاسْتَمَالَهُمْ إِلَى نَصْرِهِ وَمُوَافَقَتِهِ، فَلَمَّا عَرَفُوا كَلَامَهُ قَالُوا: لَا أَنْعَمَ اللَّهُ بِكَ عَيْنًا يَا فَاسِقُ يَا عَدُوَّ اللَّهِ، وَنَالُوا مِنْهُ وَسَبُّوهُ. فَرَجَعَ وَهُوَ يَقُولُ: وَاللَّهِ لَقَدْ أَصَابَ قَوْمِي بَعْدِي شَر. وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ

[1] – ابن كثير، (4/178–179).

قَبْلَ فِرَارِهِ، وقَرَأَ عَلَيْهِ مِنَ الْقُرْآنِ، فَأَبَى أَنْ يُسْلِمَ وتمرَّد، فدعا عَلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَمُوتَ بَعِيدًا طَرِيدًا، فَنَالَتْهُ هَذِهِ الدَّعْوَةُ.

وَذَلِكَ أَنَّهُ لَمَّا فَرَغَ النَّاسُ مِنْ أُحُدٍ، وَرَأَى أَمْرَ الرَّسُولِ، صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ فِي ارْتِفَاعٍ وَظُهُورٍ، ذَهَبَ إِلَى هِرَقْلَ، مَلِكِ الرُّومِ، يَسْتَنْصِرُهُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَوَعَدَهُ وَمَنَّاهُ، وَأَقَامَ عِنْدَهُ، وَ كَتَبَ إِلَى جَمَاعَةٍ مِنْ قَوْمِهِ مِنَ الْأَنْصَارِ مِنْ أَهْلِ النِّفَاقِ وَالرَّيْبِ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ أَنَّهُ سَيَقْدَمُ بِجَيْشٍ يُقَاتِلُ بِهِ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيَغْلِبُهُ وَيَرُدُّهُ عَمَّا هُوَ فِيهِ، وَأَمَرَهُمْ أَنْ يَتَّخِذُوا لَهُ مَعْقِلًا يَقْدَمُ عَلَيْهِمْ فِيهِ مَنْ يَقْدَمُ مِنْ عِنْدِهِ لِأَدَاءِ كُتُبِهِ وَيَكُونَ مَرْصَدًا لَهُ إِذَا قَدِمَ عَلَيْهِمْ بَعْدَ ذَلِكَ، فَشَرَعُوا فِي بِنَاءِ مَسْجِدٍ مُجَاوِرٍ لِمَسْجِدِ قُبَاءٍ، فَبَنَوْهُ وَأَحْكَمُوهُ، فِي وَفَرَغُوا مِنْهُ قَبْلَ خُرُوجِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى تَبُوكَ، وَجَاءُوا فَسَأَلُوا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَأْتِيَ إِلَيْهِمْ فَيُصَلِّيَ فِي مَسْجِدِهِمْ، لِيَحْتَجُّوا بِصَلَاتِهِ، عَلَيْهِ السَّلَامُ، فِيهِ عَلَى تَقْرِيرِهِ وَإِثْبَاتِهِ، وَذَكَرُوا أَنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْهُ لِلضُّعَفَاءِ مِنْهُمْ وَأَهْلِ الْعِلَّةِ اللَّيْلَةِ الشَّاتِيَةِ، فَعَصَمَهُ اللَّهُ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ فَقَالَ: "إِنَّا عَلَى سَفَرٍ، وَلَكِنْ إِذَا رَجَعْنَا إِنْ شَاءَ اللَّهُ".

فَلَمَّا قَفَلَ، عَلَيْهِ السَّلَامُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ مِنْ تَبُوكَ، وَلَمْ يَبْقَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهَا إِلَّا يَوْمٌ أَوْ بَعْضُ يَوْمٍ، نَزَلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ بِخَبَرِ مَسْجِدِ الضِّرَارِ، وَمَا اعْتَمَدَهُ بَانُوهُ مِنَ الْكُفْرِ وَالتَّفْرِيقِ بَيْنَ جَمَاعَةِ الْمُؤْمِنِينَ فِي مَسْجِدِهِمْ مَسْجِدِ قُبَاءٍ، الَّذِي أُسِّسَ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ عَلَى التَّقْوَى. فَبَعَثَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى ذَلِكَ الْمَسْجِدِ مَنْ هَدَمَهُ قَبْلَ مَقْدَمِهِ الْمَدِينَةَ، كَمَا قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ فِي قَوْلِهِ: {وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا [وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ] } وَهُمْ أُنَاسٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، ابْتَنَوْا مَسْجِدًا، فَقَالَ لَهُمْ أَبُو عَامِرٍ، ابْنُوا مَسْجِدًا وَاسْتَعِدُّوا بِمَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ سِلَاحٍ، فَإِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى قَيْصَرَ مَلِكِ الرُّومِ، فَآتِي بِجُنْدٍ مِنَ الرُّومِ وَأُخْرِجُ مُحَمَّدًا وَأَصْحَابَهُ. فَلَمَّا فَرَغُوا مِنْ مَسْجِدِهِمْ أَتَوُا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: قَدْ فَرَغْنَا مِنْ بِنَاءِ مَسْجِدِنَا، فَنُحِبُّ أَنْ تُصَلِّيَ فِيهِ وَتَدْعُوَ لَنَا بِالْبَرَكَةِ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ، عَزَّ وَجَلَّ: {لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ} إِلَى {وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ}»[1]

سبب نزول هذه الآيات الكريمة هو ما قام به "أبو عامر الراهب"، وكان من الخزرج، تنصر في الجاهلية، وكان له شأن في قومه، فلما جاء النبي ﷺ إلى المدينة وعلت كلمة الإسلام، حقد عليه أبو عامر، وتحالف مع المشركين، وسعى في الكيد للإسلام، حتى ذهب إلى الروم يستنصرهم. وأوصى المنافقين من قومه ببناء مسجدٍ يكون وكراً للتآمر والتفريق بين المؤمنين، مجاوراً لمسجد قباء. فلما

[1] – ابن كثير، (4/210-211).

طلبوا من النبي ﷺ أن يصلي فيه ليكسب شرعية، أنزل الله الوحي يكشف أمرهم، وحرّم على النبي ﷺ أن يقوم فيه، وبيّن أن مسجد التقوى – وهو مسجد قباء – هو الأحق بالعبادة، فأمر النبي ﷺ بهدم مسجد الضرار قبل أن يصل إلى المدينة.

﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتۡ سُورَةٞ فَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمۡ زَادَتۡهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنٗاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَهُمۡ يَسۡتَبۡشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَتۡهُمۡ رِجۡسًا إِلَىٰ رِجۡسِهِمۡ وَمَاتُواْ وَهُمۡ كَٰفِرُونَ ١٢٥﴾ [سورة التوبة,124-125]

«يَقُولُ تَعَالَى: {وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ} فَمِنَ الْمُنَافِقِينَ {مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا}؟ أَيْ: يَقُولُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ السُّورَةُ إِيمَانًا؟ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ}.

وَهَذِهِ الْآيَةُ مِنْ أَكْبَرِ الدَّلَائِلِ عَلَى أَنَّ الْإِيمَانَ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، كَمَا هُوَ مَذْهَبُ أَكْثَرِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ مِنْ أَئِمَّةِ الْعُلَمَاءِ، بَلْ قَدْ حَكَى الْإِجْمَاعَ عَلَى ذَلِكَ غَيْرُ وَاحِدٍ، وَقَدْ بَسَطَ الْكَلَامُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ فِي أَوَّلِ "شَرْحِ الْبُخَارِيِّ" رَحِمَهُ اللَّهُ، {وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ} أَيْ: زَادَتْهُمْ شَكًّا إِلَى شَكِّهِمْ، وَرَيْبًا إِلَى رَيْبِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَنُنزلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ وَلا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلا خَسَارًا} [الْإِسْرَاءِ: 82] ، وَقَالَ تَعَالَى: {قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى أُولَئِكَ يُنَادَوْنَ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ} [فُصِّلَتْ: 44] ، وَهَذَا مِنْ جُمْلَةِ شَقَائِهِمْ أَنَّ مَا يَهْدِي الْقُلُوبَ يَكُونُ سَبَبًا لِضَلَالِهِمْ وَدَمَارِهِمْ، كَمَا أَنَّ سَيِّئَ الْمِزَاجِ لَوْ غُذِّيَ بِمَا غُذِّيَ بِهِ لَا يَزِيدُهُ إِلَّا خَبَالًا وَنَقْصًا»[1]

﴿وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعۡنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٞ مِّنۡهُم مِّنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحۡكُمَ بَيۡنَهُمۡ إِذَا فَرِيقٞ مِّنۡهُم مُّعۡرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلۡحَقُّ يَأۡتُوٓاْ إِلَيۡهِ مُذۡعِنِينَ ٤٩ أَفِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾ [سورة النّور,47-50]

---

[1] –ابن كثير، (209/4–210).

«يُخْبِرُ تَعَالَى عَنْ صِفَاتِ الْمُنَافِقِينَ، الَّذِينَ يُظْهِرُونَ خِلَافَ مَا يُبْطِنُونَ، يَقُولُونَ قَوْلًا بِأَلْسِنَتِهِمْ: {آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّى فَرِيقٌ مِنْهُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ} أَيْ: يُخَالِفُونَ أَقْوَالَهُمْ بِأَعْمَالِهِمْ، فَيَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {وَمَا أُولَئِكَ بِالْمُؤْمِنِينَ}.

وَقَوْلُهُ: {وَإِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ مُعْرِضُونَ} أَيْ: إِذَا طُلِبُوا إِلَى اتِّبَاعِ الْهُدَى، فِيمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، أَعْرَضُوا عَنْهُ وَاسْتَكْبَرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ عَنِ اتِّبَاعِهِ. وَهَذِهِ كَقَوْلِهِ: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالا بَعِيدًا وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنْكَ صُدُودًا} [النِّسَاءِ: 60، 61] .

وَفِي الطَّبَرَانِيِّ مِنْ حَدِيثِ رَوْحِ بْنِ عَطَاءِ بْنِ أَبِي مَيْمُونَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنِ الْحَسَنِ، عَنْ سَمُرَةَ مَرْفُوعًا: "مَنْ دُعِيَ إِلَى سُلْطَانٍ فَلَمْ يُجِبْ، فَهُوَ ظَالِمٌ لَا حَقَّ لَهُ".

وَقَوْلُهُ: {وَإِنْ يَكُنْ لَهُمُ الْحَقُّ يَأْتُوا إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ}، أَيْ: وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ لَهُمْ لَا عَلَيْهِمْ، جَاؤُوا سَامِعِينَ مُطِيعِينَ وَهُوَ مَعْنَى قَوْلِهِ: {مُذْعِنِينَ} وَإِذَا كَانَتِ الْحُكُومَةُ عَلَيْهِ أَعْرَضَ وَدَعَا إِلَى غَيْرِ الْحَقِّ، وَأَحَبَّ أَنْ يَتَحَاكَمَ إِلَى غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُرَوِّجَ بَاطِلَهُ ثَمَّ. فَإِذْعَانُهُ أَوَّلًا لَمْ يَكُنْ عَنِ اعْتِقَادٍ مِنْهُ أَنَّ ذَلِكَ هُوَ الْحَقُّ، بَلْ لِأَنَّهُ مُوَافِقٌ لِهَوَاهُ؛ وَلِهَذَا لَمَّا خَالَفَ الْحَقُّ قَصْدَهُ، عَدَلَ عَنْهُ إِلَى غَيْرِهِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {أَفِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمِ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ} يَعْنِي: لَا يَخْرُجُ أَمْرُهُمْ عَنْ أَنْ يَكُونَ فِي الْقُلُوبِ مَرَضٌ لَازِمٌ لَهَا، أَوْ قَدْ عَرَضَ لَهَا شَكٌّ فِي الدِّينِ، أَوْ يَخَافُونَ أَنْ يَجُورَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْحُكْمِ. وَأَيًّا مَا كَانَ فَهُوَ كُفْرٌ مَحْضٌ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِكُلٍّ مِنْهُمْ، وَمَا هُوَ عَلَيْهِ مُنْطَوٍ مِنْ هَذِهِ الصِّفَاتِ

وَقَوْلُهُ: {بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ} أَيْ: بَلْ هُمُ الظَّالِمُونَ الْفَاجِرُونَ، وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ مُبَرَّآنِ مِمَّا يَظُنُّونَ وَيَتَوَهَّمُونَ مِنَ الْحَيْفِ وَالْجَوْرِ، تَعَالَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ عَنْ ذَلِكَ.»[1]

يتحدث هذا النص عن صفات المنافقين كما وردت في القرآن الكريم، ويبين كيف يظهرون الإيمان والطاعة بألسنتهم، بينما تخالف أعمالهم ذلك، فهم يقولون ما لا يفعلون. وحين يُدعون إلى تحكيم شرع الله ورسوله يعرضون، لكن إذا كان الحكم في صالحهم أقبلوا عليه مذعنين، مما يدل على أن طاعتهم

---

[1] – ابن كثير، (74/6).

ليست عن إيمان، بل عن هوى ومصلحة. ويُوضح النص أن هذا السلوك نابع من مرض في قلوبهم أو شك في عدل الله ورسوله، أو اتهام لهما بالحيف، وكل ذلك كفر محض. ثم يختم بأن هؤلاء هم الظالمون حقًا، وأن الله ورسوله منزهون عن الظلم والجور الذي يتوهمه المنافقون.

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾ [سورة العنكبوت,10-11]

«يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْ صِفَاتِ قَوْمٍ مِنَ [الْمُكَذِّبِينَ] (4) الَّذِينَ يَدَّعُونَ الْإِيمَانَ بِأَلْسِنَتِهِمْ، وَلَمْ يَثْبُتِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِهِمْ، بِأَنَّهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ فِتْنَةٌ وَمِحْنَةٌ فِي الدُّنْيَا، اعْتَقَدُوا أَنَّ هَذَا مِنْ نِقْمَةِ اللَّهِ تَعَالَى بِهِمْ، فَارْتَدُّوا عَنِ الْإِسْلَامِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}.

قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يَعْنِي فِتْنَتَهُ أَنْ يَرْتَدَّ عَنْ دِينِهِ إِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ. وَكَذَا قَالَ غَيْرُهُ مِنْ عُلَمَاءِ السَّلَفِ. وَهَذِهِ الْآيَةُ كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ} [الْحَجِّ: 11].

ثُمَّ قَالَ: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ} أَيْ: وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ قَرِيبٌ مِنْ رَبِّكَ -يَا مُحَمَّدُ -وَفَتْحٌ وَمَغَانِمُ، لَيَقُولُنَّ هَؤُلَاءِ لَكُمْ: إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ، أَيْ [كُنَّا] (5) إِخْوَانَكُمْ فِي الدِّينِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قَالُوا أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ وَإِنْ كَانَ لِلْكَافِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوا أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُمْ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [النِّسَاءِ: 141] ، وَقَالَ تَعَالَى: {فَعَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ} [الْمَائِدَةِ: 52] .

وَقَالَ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنْهُمْ هَاهُنَا: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}، ثُمَّ قَالَ تَعَالَى: {أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ} أَيْ: أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ، وَمَا تُكِنُّهُ ضَمَائِرُهُمْ، وَإِنْ أَظْهَرُوا لَكُمُ الْمُوَافَقَةَ؟

وَقَوْلُهُ: {وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ} أَيْ: وَلَيَخْتَبِرَنَّ اللَّهُ النَّاسَ بِالضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، لِيَتَمَيَّزَ هَؤُلَاءِ مِنْ هَؤُلَاءِ، وَمَنْ يُطِيعُ اللَّهَ فِي الضَّرَّاءِ وَالسَّرَّاءِ، إِنَّمَا يُطِيعُهُ فِي حَظِّ نَفْسِهِ، كَمَا

قَالَ تَعَالَى: {وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ} [مُحَمَّد: 31] ، وَقَالَ تَعَالَى بَعْدَ وَقْعَةِ أُحُدٍ، الَّتِي كَانَ فِيهَا مَا كَانَ مِنَ الِاخْتِبَارِ وَالِامْتِحَانِ: {مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ} الْآيَةَ [آلِ عِمْرَانَ: 179] ، [وَاللَّهُ أَعْلَمُ]»[1]

وهنا يشرح المفسر (وهو ابن كثير) حال فئة من الناس يدّعون الإيمان بألسنتهم، ولكن الإيمان لم يستقر في قلوبهم. فهؤلاء المنافقون يظهرون الإيمان ويخفون الكفر، فإذا أصابتهم فتنة أو بلاء، كالأذى في سبيل الله، ارتدّوا عن دينهم وظنّوا أن ما أصابهم هو عقوبة من الله، وليس ابتلاء ليميز الله الصادق من الكاذب، ويستشهد ابن كثير بقوله تعالى:{وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ}، ويعني بذلك أن هذا الشخص يعامل أذى الناس له في سبيل الله وكأنه عذاب من الله، فيرتد عن دينه، كما أوضح ابن عباس وغيره من السلف، ثم يربط هذه الآية بآية أخرى مشابهة في المعنى: {وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ} أي على طرف، لا على ثبات، فإن ناله خير اطمأن، وإن نزل به بلاء ارتد، ثم يوضح أن هؤلاء المنافقين إذا رأوا نصراً للمسلمين، تظاهروا بأنهم منهم، طمعًا في الغنائم، كما في قوله: {وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ}،ولكن الله أعلم بصدق قلوبهم، كما بيّن في قوله:{أَوَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ}.

ويختم ابن كثير بأن الله يبتلي الناس ليعلم المؤمن من المنافق، فيميز الخبيث من الطيب، كما قال في مواضع عدة، منها بعد غزوة أحد: **{مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ ... حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ}**

والخلاصة: أنه يشرح حال المنافقين الذين يُظهرون الإيمان ويكفرون عند المحن، وتؤكد أن الابتلاء سنّة إلهية لتمييز الصادق من الكاذب، والطيب من الخبيث.

﴿ ۞لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ٦٠ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ٦٢ ﴾[سورة الأحزاب,60-62]

«...قَالَ: كَانَ نَاسٌ مِنْ فُسَّاقِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ يَخْرُجُونَ بِاللَّيْلِ حِينَ يَخْتَلِطُ الظَّلَامُ إِلَى طُرُقِ الْمَدِينَةِ، يَتَعَرَّضُونَ لِلنِّسَاءِ، وَكَانَتْ مَسَاكِنُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ ضَيِّقَةً، فَإِذَا كَانَ اللَّيْلُ خَرَجَ النِّسَاءُ إِلَى الطُّرُقِ يَقْضِينَ حَاجَتَهُنَّ، فَكَانَ أُولَئِكَ الْفُسَّاقُ يَبْتَغُونَ ذَلِكَ مِنْهُنَّ، فَإِذَا رَأَوُا امْرَأَةً عَلَيْهَا جِلْبَابٌ قَالُوا: هَذِهِ حُرَّةٌ، كُفُّوا عَنْهَا. وَإِذَا رَأَوُا الْمَرْأَةَ لَيْسَ عَلَيْهَا جِلْبَابٌ، قَالُوا: هَذِهِ أَمَةٌ. فَوَثَبُوا إِلَيْهَا (8).

[1] – ابن كثير، (266/265/6).

وَقَالَ مُجَاهِدٌ: يتَجَلْببْنَ فيُعلَمُ أَنَّهُنَّ حرَائِر، فلَا يتَعرَّضُ لَهُنَّ فَاسِقٌ بِأَذًى ولَا رِيبَةٍ.

وَقَوْلُهُ: {وكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا} أَيْ: لِمَا سَلَفَ فِي أَيَّامِ الْجَاهِلِيَّةِ حَيْثُ لَمْ يَكُنْ عِنْدَهُنَّ عِلْمٌ بِذَلِكَ.

ثُمَّ قَالَ تَعَالَى مُتَوعِّدًا لِلْمُنَافِقِينَ، وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ: {وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ} قَالَ عِكْرِمَةُ وَغَيْرُهُ: هُمُ الزُّنَاةُ هَاهُنَا {وَالْمُرْجِفُونَ فِي الْمَدِينَةِ}، يعني: الذين يقولون: "جاء الْأَعْدَاءُ"وَ"جَاءَتِ الْحُرُوبُ"، وَهُوَ كَذِبٌ وَافْتِرَاءٌ، لَئِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَنْ ذَلِكَ وَيَرْجِعُوا إِلَى الْحَقِّ {لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ} قَالَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَلْحَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: أَيْ: لنسلطنَّك عَلَيْهِمْ. وَقَالَ قَتَادَةُ، رَحِمَهُ اللَّهُ: لنحرّشَنَّك بِهِمْ. وَقَالَ السُّدِّيُّ: لَنُعْلِمَنَّكَ بِهِمْ.{ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا} أَيْ: فِي الْمَدِينَةِ {إِلا قَلِيلا * مَلْعُونِينَ} حَالٌ مِنْهُمْ فِي مُدَّةِ إِقَامَتِهِمْ فِي الْمَدِينَةِ مُدَّةً قريبة مطرودين مبعدين، {أَيْنَمَا ثُقِفُوا} أَيْ: وُجِدُوا، {أُخِذُوا} لِذِلَّتِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ، {وَقُتِّلُوا تَقْتِيلا} .

ثُمَّ قَالَ: {سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ} أَيْ: هَذِهِ سُنَّتُهُ فِي الْمُنَافِقِينَ إِذَا تَمَرَّدُوا عَلَى نِفَاقِهِمْ وَكُفْرِهِمْ وَلَمْ يَرْجِعُوا عَمَّا هُمْ فِيهِ، أَنَّ أَهْلَ الْإِيمَانِ يُسَلَّطُونَ عَلَيْهِمْ وَيَقْهَرُونَهُمْ، {وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلا} أَيْ: وَسُنَّةُ اللَّهِ فِي ذَلِكَ لَا تُبَدَّلُ وَلَا تُغَيَّرُ»[1]

يبيّن النص مشهداً اجتماعياً من المدينة في صدر الإسلام، حيث كان بعض الفسّاق يخرجون ليلًا يتحرشون بالنساء، مستغلين ضيق المساكن وخروج النساء ليلاً لقضاء حاجتهن، ويميزون بين الحرائر والإماء بلباس الجلباب؛ فإذا رأوا امرأة متجلببة كفّوا عنها. ومن هنا جاء الأمر الإلهي للنساء بالتجلبب، حماية لهن وتمييزاً عن الإماء، كما فسره مجاهد وغيره. ثم يعقّب النص بالحديث عن المنافقين والمرجفين أي مثيري الفتن بنشر الأخبار الكاذبة عن الأعداء والحروب – ويتوعدهم الله بالعقوبة إن لم ينتهوا عن ذلك، فيسلّط عليهم النبي والمؤمنون ويطردون من المدينة أذلةً مهانين، ويُقتلون إن أُخذوا، مؤكداً أن هذا العقاب هو سنةٌ إلهية ماضية في المنافقين لا تتغير ولا تتبدل.

﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾ [سورة الأحزاب,73]

---

[1] –ابن كثير، (482/6–483).

«...وَقَوْلُه تَعَالَى: {لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، أَيْ: إِنَّمَا حمَلَ ابْنُ آدمَ الْأَمَانَةَ وَهِيَ التَّكَالِيفُ لِيُعَذِّبَ اللَّهُ الْمُنَافِقِينَ منهُمْ وَالْمُنَافِقَاتِ، وَهُمُ الَّذِينَ يُظْهِرُونَ الْإِيمَانَ خَوْفًا مِنْ أَهْلِه وَيُبْطِنُونَ الْكُفْرَ مُتَابَعَةً لِأَهْلِه، {وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ}، وَهُمُ الَّذِينَ ظَاهِرُهُمْ وَبَاطِنُهُمْ عَلَى الشِّرْكِ بِاللَّه، عزَّ وجلَّ، وَمُخَالَفَةِ رُسُلِه، {وَيَتُوبَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ} أَيْ: وَلِيَرْحَمَ الْمُؤْمِنِينَ مِنَ الْخَلْقِ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ الْعَامِلِينَ بِطَاعَتِهِ {وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا}»[1]

يفسّر هذا المقطع القرآني الغاية من تحمُّل الإنسان للأمانة، وهي التكاليف الشرعية، فيقول: إنما حملها ليظهر الله بذلك جزاء الناس على أفعالهم، فيعذّب المنافقين والمنافقات الذين يُظهرون الإيمان خوفًا ويُبطنون الكفر، وكذلك يعذّب المشركين والمشركات الذين يتجاهرون بالكفر مخالفةً للرسل. وفي المقابل، يتوب الله على المؤمنين والمؤمنات الذين صدقوا في إيمانهم وعملوا بطاعته. ويختم البيان بأن الله غفور رحيم، فيجمع بين الوعيد والوعد، والعدل والرحمة.

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ٢٩ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ٣٠﴾ [سورة محمّد،29-30]

«يَقُولُ تَعَالَى: {أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ} أَيْ: اعْتَقَدَ الْمُنَافِقُونَ أَنَّ اللَّهَ لَا يَكْشِفُ أَمْرَهُمْ لِعِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ؟ بَلْ سَيُوضِحُ أَمْرَهُمْ وَيُجَلِّيه حَتَّى يفهمهُمْ ذَوُو الْبَصَائِرِ، وَقَدْ أَنْزَلَ تَعَالَى فِي ذَلِكَ سُورَةَ "بَرَاءَة"، فَبَيَّنَ فِيهَا فَضَائِحَهُمْ وَمَا يَعْتَمِدُونَهُ مِنَ الْأَفْعَالِ الدَّالَّةِ عَلَى نِفَاقِهِمْ؛ وَلِهَذَا إِنَّمَا كَانَتْ تُسَمَّى الْفَاضِحَةَ. وَالْأَضْغَانُ: جَمْعُ ضِغْنٍ، وَهُوَ مَا فِي النُّفُوسِ مِنَ الْحَسَدِ وَالْحِقْدِ لِلْإِسْلَامِ وَأَهْلِهِ وَالْقَائِمِينَ بِنَصْرِه.

وَقَوْلُهُ: {وَلَوْ نَشَاءُ لأريْنَاكَهم فَلَعرَفْتَهمْ بِسِيمَاهُمْ} يَقُولُ تَعَالَى: وَلَوْ نَشَاءُ يَا مُحَمَّدُ لَأَرَيْنَاكَ أَشْخَاصَهُمْ، فعرَفْتَهم عِيَانًا، وَلَكِنْ لَمْ يَفْعَلْ تَعَالَى ذَلِكَ فِي جَمِيعِ الْمُنَافِقِينَ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى خَلْقِه، وَحَمْلًا لِلْأُمُورِ عَلَى ظَاهِرِ السَّلَامَةِ، وَرَدَّ السَّرَائِرِ إِلَى عَالِمِهَا، {وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ} أَيْ: فِيمَا يَبْدُو مِنْ كَلَامِهِمُ الدَّالِّ عَلَى مَقَاصِدِهِمْ، يَفْهَمُ الْمُتَكَلِّمُ مِنْ أَيِّ الْحِزْبَيْنِ هُوَ بِمَعَانِي كَلَامِهِ وَفَحْوَاه، وَهُوَ الْمُرَادُ مِنْ لَحْنِ الْقَوْلِ، كَمَا قَالَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَسَرَّ أَحَدٌ سَرِيرَةً إِلَّا أَبْدَاهَا اللَّهُ

[1] – نفسه، (493/6)

عَلَى صَفَحَاتِ وَجْهِهِ، وَفَلَتَاتِ لِسَانِهِ. وَفِي الْحَدِيثِ: "مَا أسر أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها إن خيرا فخيرا وإن شرا فشر»[1].

يبين المفسر أن المنافقين ظنوا أن الله لن يفضح أمرهم أمام المؤمنين، ولكن الله سيُظهر نفاقهم ويكشفه حتى يعلمه أهل البصيرة، وقد أنزل الله سورة "براءة" التي سميت "الفاضحة" لأنها بينت نفاقهم وأعمالهم السيئة. و"الأضغان" هي الأحقاد الدفينة في نفوسهم ضد الإسلام وأهله، وفي قوله تعالى: {ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم}، يُظهر الله أن بإمكانه أن يُعرّف نبيه بأشخاص المنافقين رؤيةً واضحة، لكنه لم يفعل ذلك لحكمة، منها ستر الخلق وردّ الأمور إلى ظاهرها. لكنه بيّن أن المؤمن يمكنه أن يعرفهم من "لحن القول"، أي من أسلوب كلامهم وتلميحاتهم التي تدل على نياتهم، كما قال عثمان بن عفان: "ما أسرّ أحد سريرة إلا أبداها الله على صفحات وجهه وفلتات لسانه"، ويعضده الحديث النبوي: "ما أسرّ أحد سريرة إلا كساه الله جلبابها إن خيرا فخير، وإن شرا فشر."

﴿وَيُعَذِّبَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْمُشْرِكِينَ وَٱلْمُشْرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ٦﴾ [سورة الفتح,6]

«وَقَوْلُهُ: {وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ} أَيْ: يَتَّهِمُونَ اللَّهَ فِي حُكْمِهِ، وَيَظُنُّونَ بِالرَّسُولِ وَأَصْحَابِهِ أَنْ يُقْتَلُوا وَيَذْهَبُوا بِالْكُلِّيَّةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ} أَيْ: أَبْعَدَهُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ {وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا}، ثُمَّ قَالَ مُؤَكِّدًا لِقُدْرَتِهِ عَلَى الِانْتِقَامِ مِنَ الْأَعْدَاءِ -أَعْدَاءِ الإسلام من الكفرة والمنافقين- {وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا}»[2]

تشرح هذه الآيات من سورة الفتح، وتوضح موقف المنافقين والمشركين من الدعوة الإسلامية، وتحمل وعيداً شديداً لهم. ويمكن تلخيص شرحها على النحو الآتي: في قوله تعالى: {ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء}، بيَّن أن هؤلاء يتهمون الله في حكمه وعدله، ويظنون برسول الله ﷺ وأصحابه أنهم سيُهزمون ويُستأصلون، وهذا الظن يعكس شكهم وسوء نياتهم تجاه الدعوة. ولذلك استحقوا اللعنة والعذاب، فجاء في الآية} :عليهم دائرة السوء {أي: دائرة العذاب والمكروه، }وغضب الله عليهم ولعنهم}؛ أي: طردهم من رحمته، {وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً}، ثم ختمت الآيات بتأكيد قدرة الله تعالى على نصرة أوليائه والانتقام من أعدائه، فقال: {ولله

1 - ابن كثير، (7/321-322).
2 - ابن كثير، (7/329).

جنود السماوات والأرض وكان الله عزيزاً حكيماً}، أي أن كل القوى في الكون تحت أمر الله، وهو الغالب الذي لا يُقهر، الحكيم في تصرفه وأمره.

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢا ۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ١١﴾ [سورة الفتح,11]

«يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا رَسُولَهُ-صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ -بِمَا يَعْتَذِرُ بِهِ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ الَّذِينَ اخْتَارُوا الْمُقَامَ فِي أَهْلِيهِمْ وَشُغْلِهِمْ ، وَتَرَكُوا الْمَسِيرَ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاعْتَذَرُوا بِشُغْلِهِمْ بِذَلِكَ، وَسَأَلُوا أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَهُمُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ قَوْلٌ مِنْهُمْ لَا عَلَى سَبِيلِ الِاعْتِقَادِ، بَلْ عَلَى وَجْهِ التَّقِيَّةِ وَالْمُصَانَعَةِ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا} أَيْ: لَا يَقْدِرُ أَحَدٌ أَنْ يَرُدَّ مَا أَرَادَهُ فِيكُمْ تَعَالَى وَتَقَدَّسَ، وَهُوَ الْعَلِيمُ بِسَرَائِرِكُمْ وَضَمَائِرِكُمْ، وَإِنْ صَانَعْتُمُونَا وَتَابَعْتُمُونَا ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {بَلْ كَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا}»[1]

الفقرة تتناول تفسير قول الله تعالى عن الأعراب المتخلفين عن الخروج مع النبي ﷺ في غزوة تبوك، حيث يوضح أن الله تعالى يُخبر نبيه بما سيقوله هؤلاء الأعراب من أعذار لتبرير تخلفهم، كادعائهم الانشغال بأهلهم وأعمالهم. وقد طلبوا من النبي ﷺ أن يستغفر لهم، لكن الله يكشف زيف نواياهم، إذ لم تكن أعذارهم نابعة من إيمان حقيقي، بل كانت بدافع التقية والمصانعة. ولهذا قال تعالى : *{يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم}*، أي إن أقوالهم لا تعبر عن نياتهم، فالله وحده هو المتصرف في أمورهم، إن شاء أن يضرّهم أو ينفعهم فلا أحد يستطيع ردّ قدره، وهو سبحانه العليم بما يخفونه في صدورهم، وإن حاولوا خداع المؤمنين أو مجاملتهم. لذا ختم الآية بقوله: *{بل كان الله بما تعملون خبيراً}*، تنبيهاً على أن الله مطلع على حقيقتهم مهما أظهروا من خلاف ذلك.

﴿يَوْمَ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلْمُنَـٰفِقَـٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱنظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِن نُّورِكُمْ قِيلَ ٱرْجِعُوا۟ وَرَآءَكُمْ فَٱلْتَمِسُوا۟ نُورًا فَضُرِبَ بَيْنَهُم بِسُورٍ لَّهُۥ بَابٌۢ بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحْمَةُ وَظَـٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلْعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُن مَّعَكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَـٰكِنَّكُمْ فَتَنتُمْ أَنفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَٱرْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ١٤﴾ [سورة الحديد,13-14]

[1] - نفسه، (337/7).

«وَقَوْلُهُ: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} وَهَذَا إِخْبَارٌ مِنْهُ تَعَالَى عَمَّا يَقَعُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الْعَرَصَاتِ مِنَ الْأَهْوَالِ الْمُزْعِجَةِ، وَالزَّلَازِلِ الْعَظِيمَةِ، وَالْأُمُورِ الْفَظِيعَةِ وَإِنَّهُ لَا يَنْجُو يَوْمَئِذٍ إِلَّا مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَعَمِلَ بِمَا أَمَرَ اللَّهُ، بِهِ وَتَرَكَ مَا عَنْهُ زَجَرَ.

قَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ، حَدَّثَنَا صَفْوَانُ بْنُ عَمْرٍو، حَدَّثَنِي سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ قَالَ: خَرَجْنَا عَلَى جِنَازَةٍ فِي بَابِ دِمَشْقَ، وَمَعَنَا أَبُو أُمَامَةَ الْبَاهِلِيُّ، فَلَمَّا صَلَّى عَلَى الْجِنَازَةِ وَأَخَذُوا فِي دَفْنِهَا، قَالَ أَبُو أُمَامَةَ: أَيُّهَا النَّاسُ، إِنَّكُمْ قَدْ أَصْبَحْتُمْ وَأَمْسَيْتُمْ فِي مَنْزِلٍ تَقْتَسِمُونَ فِيهِ الْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ، وَتُوشِكُونَ أَنْ تَظْعَنُوا مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ، وَهُوَ هَذَا-يُشِيرُ إِلَى الْقَبْرِ-بَيْتُ الْوَحْدَةِ، وَبَيْتُ الظُّلْمَةِ، وَبَيْتُ الدُّودِ، وَبَيْتُ الضِّيقِ، إِلَّا مَا وَسَّعَ اللَّهُ، تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَوَاطِنِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّكُمْ فِي بَعْضِ تِلْكَ الْمَوَاطِنِ [حَتَّى] يَغْشَى النَّاسَ أَمْرٌ مِنَ اللَّهِ، فَتَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ، ثُمَّ تَنْتَقِلُونَ مِنْهُ إِلَى مَنْزِلٍ آخَرَ فَتَغْشَى النَّاسَ ظُلْمَةٌ شَدِيدَةٌ، ثُمَّ يُقَسَّمُ النُّورُ فَيُعْطَى الْمُؤْمِنُ نُورًا وَيُتْرَكُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ فَلَا يُعْطَيَانِ شَيْئًا، وَهُوَ الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبَهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ، قَالَ {أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ} إِلَى قَوْلِهِ: {فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ} [النُّور: 40] ، فَلَا يَسْتَضِيءُ الْكَافِرُ وَالْمُنَافِقُ بِنُورِ الْمُؤْمِنِ كَمَا لَا يَسْتَضِيءُ الْأَعْمَى بِنُورِ الْبَصِيرِ، وَيَقُولُ الْمُنَافِقُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ قِيلَ ارْجِعُوا وَرَاءَكُمْ فَالْتَمِسُوا نُورًا} وَهِيَ خدعة الله التي خدع بِهَا الْمُنَافِقِينَ حَيْثُ قَالَ: {يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ} [النِّسَاءِ:142] . فَيَرْجِعُونَ إِلَى الْمَكَانِ الَّذِي قُسِّمَ فِيهِ النُّورُ، فَلَا يَجِدُونَ شَيْئًا فَيَنْصَرِفُونَ إِلَيْهِمْ وَقَدْ ضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ، {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} الْآيَةَ. يَقُولُ سُلَيْمُ بْنُ عَامِرٍ: فَمَا يَزَالُ الْمُنَافِقُ مُغْتَرًّا حَتَّى يُقَسَّمَ النُّورُ، وَيُمَيِّزَ اللَّهُ بَيْنَ والمؤمن المنافق.

ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ عُثْمَانَ، حَدَّثَنَا ابْنُ حَيْوَةَ، حَدَّثَنَا أَرْطَأَةُ بْنُ الْمُنْذِرِ، حَدَّثَنَا يُوسُفُ بْنُ الْحَجَّاجِ، عَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: تُبْعَثُ ظُلْمَةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَمَا مِنْ مُؤْمِنٍ وَلَا كَافِرٍ يَرَى كَفَّهُ، حَتَّى يَبْعَثَ اللَّهُ بِالنُّورِ إِلَى الْمُؤْمِنِينَ بِقَدْرِ أَعْمَالِهِمْ، فَيَتْبَعُهُمُ الْمُنَافِقُونَ فَيَقُولُونَ: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} .

وَقَالَ الْعَوْفِيُّ، وَالضَّحَّاكُ، وَغَيْرُهُمَا، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: بَيْنَمَا النَّاسُ فِي ظُلْمَةٍ إِذْ بَعَثَ اللَّهُ نُورًا فَلَمَّا رَأْيِ الْمُؤْمِنُونَ النُّورَ تَوَجَّهُوا نَحْوَهُ، وَكَانَ النُّورُ دَلِيلًا مِنَ اللَّهِ إِلَى الْجَنَّةِ، فَلَمَّا رَأَى الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ قَدِ انْطَلَقُوا اتَّبَعُوهُمْ، فَأَظْلَمَ اللَّهُ عَلَى الْمُنَافِقِينَ، فَقَالُوا حِينَئِذٍ: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} فَإِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدُّنْيَا. قَالَ الْمُؤْمِنُونَ: {ارْجِعُوا} مِنْ حَيْثُ جِئْتُمْ مِنَ الظُّلْمَةِ، فَالْتَمِسُوا هُنَالِكَ النُّورَ.

وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الطَّبَرَانِيُّ: حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ عَلَّوَيْهِ الْقَطَّانُ، حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عِيسَى الْعَطَّارُ، حَدَّثَنَا إِسْحَاقُ بْنُ بِشْرٍ أَبُو حُذَيْفَةَ، حَدَّثَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ، عَنِ ابْنِ أَبِي مُلَيْكَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "إِنَّ اللَّهَ يَدْعُو النَّاسَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِأَسْمَائِهِمْ سِتْرًا مِنْهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَأَمَّا عِنْدَ الصِّرَاطِ فَإِنَّ اللَّهَ يُعْطِي كُلَّ مُؤْمِنٍ نُورًا، وَكُلَّ مُنَافِقٍ نُورًا، فَإِذَا اسْتَوَوْا عَلَى الصِّرَاطِ سَلَبَ اللَّهُ نُورَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ فَقَالَ الْمُنَافِقُونَ: {انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ} وَقَالَ الْمُؤْمِنُونَ: {رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا} [التَّحْرِيمِ: 8] . فَلَا يَذْكُرُ عِنْدَ ذَلِكَ أَحَدٌ أَحَدًا" وَقَوْلُهُ: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} قَالَ الْحَسَنُ، وَقَتَادَةُ: هُوَ حَائِطٌ بَيْنَ الْجَنَّةِ النَّارِ.

وَقَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ زَيْدِ بْنِ أَسْلَمَ: هُوَ الَّذِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ} [الْأَعْرَافِ: 46]. وَهَكَذَا رُوِيَ عَنْ مُجَاهِدٍ، رَحِمَهُ اللَّهُ، وَغَيْرِ وَاحِدٍ، وَهُوَ الصَّحِيحُ. {بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ} أَيِ: الْجَنَّةُ وَمَا فِيهَا {وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} أَيِ: النَّارُ. قَالَهُ قَتَادَةُ، وبن زيد، وغيرهما. قال بن جَرِيرٍ: وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ ذَلِكَ السُّورَ سُورُ بَيْتِ الْمَقْدِسِ عِنْدَ وَادِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ قَالَ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْبَرْقِيِّ، حَدَّثَنَا عَمْرُو بْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ عَطِيَّةَ بْنِ قَيْسٍ، عن أبي العوام- مُؤَذِّنِ بَيْتِ الْمَقْدِسِ-قَالَ: سَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو يَقُولُ: إِنَّ السُّورَ الَّذِي ذَكَرَ اللَّهُ فِي الْقُرْآنِ: {فَضُرِبَ بَيْنَهُمْ بِسُورٍ لَهُ بَابٌ بَاطِنُهُ فِيهِ الرَّحْمَةُ وَظَاهِرُهُ مِنْ قِبَلِهِ الْعَذَابُ} هُوَ السُّورُ الشَّرْقِيُّ بَاطِنُهُ الْمَسْجِدُ وَمَا يَلِيهِ، وَظَاهِرُهُ وَادِي جَهَنَّمَ. ثُمَّ رُوِيَ عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، وَكَعْبِ الْأَحْبَارِ، وَعَلِيِّ بْنِ الْحُسَيْنِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ، نَحْوُ ذَلِكَ. وَهَذَا مَحْمُولٌ مِنْهُمْ عَلَى أَنَّهُمْ أَرَادُوا بِهَذَا تَقْرِيبَ الْمَعْنَى وَمِثَالًا لِذَلِكَ، لَا أَنَّ هَذَا هُوَ الَّذِي أُرِيدَ مِنَ الْقُرْآنِ هَذَا الْجِدَارُ الْمُعَيَّنُ وَنَفْسُ الْمَسْجِدِ وَمَا وَرَاءَهُ مِنَ الْوَادِي الْمَعْرُوفِ بِوَادِي جهنم؛ فإن الجنة في السماوات فِي أَعْلَى عِلِّيِّينَ، وَالنَّارَ فِي الدَّرَكَاتِ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. وَقَوْلُ كَعْبِ الْأَحْبَارِ: إِنَّ الْبَابَ الْمَذْكُورَ فِي الْقُرْآنِ هُوَ بَابُ الرَّحْمَةِ الَّذِي هُوَ أَحَدُ أَبْوَابِ الْمَسْجِدِ، فَهَذَا مِنْ إِسْرَائِيلِيَّاتِهِ وَتُرَّهَاتِهِ. وَإِنَّمَا الْمُرَادُ بِذَلِكَ: سُورٌ يُضْرَبُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِيَحْجِزَ بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُنَافِقِينَ، فَإِذَا انْتَهَى إِلَيْهِ الْمُؤْمِنُونَ دَخَلُوهُ مِنْ بَابِهِ، فَإِذَا اسْتَكْمَلُوا دُخُولَهم أُغْلِقَ الْبَابُ وَبَقِيَ الْمُنَافِقُونَ مِنْ وَرَائِهِ فِي الْحَيْرَةِ وَالظُّلْمَةِ وَالْعَذَابِ، كَمَا كَانُوا فِي الدَّارِ الدُّنْيَا فِي كُفْرٍ وَجَهْلٍ وَشَكٍّ وَحَيْرَةٍ {يُنَادُونَهُمْ أَلَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ} أَيْ: يُنَادِي الْمُنَافِقُونَ الْمُؤْمِنِينَ: أَمَا كُنَّا مَعَكُمْ فِي الدَّارِ الدُّنْيَا، نَشْهَدُ مَعَكُمُ الْجُمُعَاتِ، وَنُصَلِّي مَعَكُمُ الْجَمَاعَاتِ، وَنَقِفُ مَعَكُمْ بِعَرَفَاتٍ، وَنَحْضُرُ مَعَكُمُ الْغَزَوَاتِ، وَنُؤَدِّي مَعَكُمْ سَائِرَ الْوَاجِبَاتِ؟ {قَالُوا بَلَى} أَيْ: فَأَجَابَ الْمُؤْمِنُونَ الْمُنَافِقِينَ قَائِلِينَ: بَلَى، قَدْ كُنْتُمْ مَعَنَا، {وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ

أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ} قَالَ بَعْضُ السَّلَفِ: أَيْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ بِاللَّذَّاتِ وَالْمَعَاصِي وَالشَّهَوَاتِ {وَتَرَبَّصْتُمْ} أَيْ: أَخَّرْتُمُ التَّوْبَةَ مِنْ وَقْتٍ إِلَى وَقْتٍ.

وَقَالَ قَتَادَةُ: {وَتَرَبَّصْتُمْ} بِالْحَقِّ وَأَهْلِهِ {وَارْتَبْتُمْ} أَيْ: بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ {وَغَرَّتْكُمُ الأَمَانِيُّ} أَيْ: قُلْتُمْ: سَيُغْفَرُ لَنَا. وَقِيلَ: غَرَّتْكُمُ الدُّنْيَا {حَتَّى جَاءَ أَمْرُ اللَّهِ} أَيْ: مَا زِلْتُمْ فِي هَذَا حَتَّى جَاءَ الْمَوْتُ {وَغَرَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ} أَيِ: الشَّيْطَانُ.

قَالَ قَتَادَةُ: كَانُوا عَلَى خُدْعَةٍ مِنَ الشَّيْطَانِ، وَاللَّهِ مَا زَالُوا عَلَيْهَا حَتَّى قَذَفَهُمُ اللَّهُ فِي النَّارِ.

وَمَعْنَى هَذَا الْكَلَامِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لِلْمُنَافِقِينَ: إِنَّكُمْ كُنْتُمْ مَعَنَا [أَيْ] بِأَبْدَانٍ لَا نِيَّةَ لَهَا وَلَا قُلُوبَ مَعَهَا، وإنما كنتم في حيرة وشك فكنتم تُراؤون النَّاسَ وَلَا تَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا»[1]

هذه الآيات تتحدث عن مشهد من مشاهد يوم القيامة مستوحى من قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ لِلَّذِينَ آمَنُوا انْظُرُونَا نَقْتَبِسْ مِنْ نُورِكُمْ}، وهو مشهد مهيب يصور حال المنافقين وهم يطلبون من المؤمنين أن يعطوهم شيئًا من نورهم بعد أن غشيهم الظلام.

هذا الظلام هو نتيجة أعمالهم في الدنيا، إذ كانوا يظهرون الإيمان ويخفون الكفر. أما المؤمنون، فقد أنار الله طريقهم يوم القيامة بنور إيمانهم وأعمالهم الصالحة. ويبين النص أن النور يُقسم بحسب العمل، فلا يُعطى إلا لمن يستحق، وأن المنافقين سيُخدعون كما كانوا يخادعون، ويحال بينهم وبين المؤمنين بسور له باب، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب، فيتجلى بذلك الفاصل النهائي بين الفريقين. وقد أورد المفسر روايات متعددة تشرح هذه الآية، منها عن الصحابة والتابعين، وعن النبي ﷺ، وفيها تنويع للصور والمواقف التي تعمق فهم هذا المشهد الأخروي، وتبيّن عاقبة النفاق وميزان العدل الإلهي.

وهذ الآيات تؤدي رسالة عظيمة في التحذير من النفاق، والتنبيه إلى أن النجاة يوم القيامة مرهونة بالإيمان الخالص والعمل الصالح، وأن لا مفر للمنافقين من عدالة الله، مهما خدعوا الناس في الدنيا.

﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ

[1] -ابن كثير، (8/16-18).

عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ ۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ ۖ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ ۖ يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ ۚ هُمُ ٱلْعَدُوُّ فَٱحْذَرْهُمْ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۖ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ ۚ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ٨﴾ [سورة المنافقون,1-8]

«يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ: إِنَّهُمْ إِنَّمَا يَتَفَوَّهُونَ بِالْإِسْلَامِ إِذَا جَاءُوا النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَمَّا فِي بَاطِنِ الْأَمْرِ فَلَيْسُوا كَذَلِكَ، بَلْ عَلَى الضِّدِّ مِنْ ذَلِكَ؛ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ} أَيْ: إِذَا حَضَرُوا عِنْدَكَ وَاجَهُوكَ بِذَلِكَ، وَأَظْهَرُوا لَكَ ذَلِكَ، وَلَيْسُوا كَمَا يَقُولُونَ: وَلِهَذَا اعْتَرَضَ بِجُمْلَةٍ مُخْبِرَةٍ أَنَّهُ رَسُولُ اللَّهِ، فَقَالَ: {اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ}

ثُمَّ قَالَ: {وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ} أَيْ: فِيمَا أَخْبَرُوا بِهِ، وَإِنْ كَانَ مُطَابِقًا لِلْخَارِجِ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْتَقِدُونَ صِحَّةَ مَا يَقُولُونَ وَلَا صِدْقَهُ؛ وَلِهَذَا كَذَّبَهُمْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى اعْتِقَادِهِمْ.

وَقَوْلُهُ: {اتَّخَذُوا أَيْمَانَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ} أَيِ: اتَّقَوُا النَّاسَ بِالْأَيْمَانِ الْكَاذِبَةِ وَالْحَلْفَاتِ الْآثِمَةِ، لِيُصَدَّقُوا فِيمَا يَقُولُونَ، فَاغْتَرَّ بِهِمْ مَنْ لَا يَعْرِفُ جَلِيَّةَ أَمْرِهِمْ، فَاعْتَقَدُوا أَنَّهُمْ مُسْلِمُونَ فَرُبَّمَا اقْتَدَى بِهِمْ فِيمَا يَفْعَلُونَ وَصَدَّقَهُمْ فِيمَا يَقُولُونَ، وَهُمْ مِنْ شَأْنِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا فِي الْبَاطِنِ لَا يَأْلُونَ الْإِسْلَامَ وَأَهْلَهُ خَبَلًا فَحَصَلَ بِهَذَا الْقَدْرِ ضَرَرٌ كَبِيرٌ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ وَلِهَذَا قَالَ تَعَالَى: {فَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} وَلِهَذَا كَانَ الضَّحَّاكُ بْنُ مُزَاحِمٍ يَقْرَؤُهَا: "اتَّخَذُوا إِيمَانَهُمْ جُنَّةً" أَيْ: تَصْدِيقُهُمُ الظَّاهِرَ جُنَّةً، أَيْ: تَقِيَّةً يَتَّقُونَ بِهِ الْقَتْلَ. وَالْجُمْهُورُ يَقْرَؤُهَا: {أَيْمَانَهُمْ} جَمْعُ يَمِينٍ.

[وَقَوْلُهُ] {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أي: إنما قُدِّر عليهم النِّفَاقُ لِرُجُوعِهِمْ عَنِ الْإِيمَانِ إِلَى الْكُفْرَانِ، وَاسْتِبْدَالِهِمُ الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى {فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} أَيْ: فَلَا يَصِلُ إِلَى قُلُوبِهِمْ هُدًى، وَلَا يَخْلُصُ إِلَيْهَا خَيْرٌ، فَلَا تَعِي وَلَا تَهْتَدِي.

{وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ} أَيْ: كَانُوا أَشْكَالًا حَسَنَةً وَذَوِي فَصَاحَةٍ وَأَلْسِنَةٍ، إِذَا سَمِعَهُمُ السَّامِعُ يُصْغِي إِلَى قَوْلِهِمْ (1) لِبَلَاغَتِهِمْ، وَهُمْ مَعَ ذَلِكَ فِي غَايَةِ الضَّعْفِ وَالْخَوَرِ وَالْهَلَعِ وَالْجَزَعِ وَالْجُبْنِ؛ وَلِهَذَا قَالَ: {يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ} أَيْ: كُلَّمَا وَقَعَ أَمْرٌ أَوْ كَائِنَةٌ أَوْ خَوْفٌ،

يَعْتَقِدُونَ، لِجُبْنِهِمْ، أَنَّهُ نَازِلٌ بِهِمْ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {أَشِحَّةً عَلَيْكُمْ فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ كَالَّذِي يُغْشَى عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَإِذَا ذَهَبَ الْخَوْفُ سَلَقُوكُمْ بِأَلْسِنَةٍ حِدَادٍ أَشِحَّةً عَلَى الْخَيْرِ أُولَئِكَ لَمْ يُؤْمِنُوا فَأَحْبَطَ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا} [الْأَحْزَابِ: 19] فَهُمْ جَهَامَاتٌ وَصُوَرٌ بِلَا مَعَانِي. وَلِهَذَا قَالَ: {هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ} أَيْ: كَيْفَ يُصرفون عَنِ الْهُدَى إِلَى الضَّلَالِ.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حَدَّثَنَا يَزِيدُ، حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ قُدَامة الجُمَحِي، عَنْ إِسْحَاقَ بْنِ بَكْرِ بْنِ أَبِي الْفُرَاتِ، عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ الْمَقْبُرِيِّ. عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: "إِنَّ لِلْمُنَافِقِينَ عَلَامَاتٍ يُعْرَفُونَ بِهَا: تَحِيَّتُهُمْ لَعْنَةٌ، وَطَعَامُهُمْ نُهْبَة، وَغَنِيمَتُهُمْ غُلُولٌ، وَلَا يَقْرَبُونَ الْمَسَاجِدَ إِلَّا هَجْرا وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا دُبْرا، مُسْتَكْبِرِينَ لَا يَأْلَفُونَ وَلَا يُؤْلَفُونَ، خُشُبٌ بِاللَّيْلِ، صُخُبٌ بِالنَّهَارِ". وَقَالَ يَزِيدُ مَرَّةً: سُخُبٌ بِالنَّهَارِ

يَقُولُ تَعَالَى مُخْبِرًا عَنِ الْمُنَافِقِينَ -عَلَيْهِمْ لَعَائِنُ اللَّهِ- أَنَّهُمْ {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ} أَيْ: صَدُّوا وَأَعْرَضُوا عَمَّا قِيلَ لَهُمْ، اسْتِكْبَارًا عَنْ ذَلِكَ، وَاحْتِقَارًا لِمَا قِيلَ لَهُمْ وَلِهَذَا قَالَ: {وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرُونَ} ثُمَّ جَازَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ فَقَالَ: {سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} كَمَا قَالَ فِي سُورَةِ "بَرَاءَةٌ" وَقَدْ تَقَدَّمَ الْكَلَامُ عَلَى ذَلِكَ، وَإِيرَادُ الْأَحَادِيثِ الْمَرْوِيَّةِ هُنَالِكَ.

وَقَالَ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حَدَّثَنَا أَبِي، حَدَّثَنَا ابْنُ أَبِي عُمَرَ العَدَني قَالَ: قَالَ سُفْيَانُ {لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ} قَالَ ابْنُ أَبِي عُمَرَ: حَوَّلَ سُفْيَانُ وَجْهَهُ عَلَى يَمِينِهِ، وَنَظَرَ بِعَيْنِهِ شَزْرا، ثُمَّ قَالَ: هُمْ هَذَا.

وَقَدْ ذَكَرَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ السَّلَفِ أَنَّ هَذَا السِّيَاقَ كُلَّهُ نَزَلَ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ كَمَا سَنُورِدُهُ قَرِيبًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى، وَبِهِ الثِّقَةُ وَعَلَيْهِ التُّكْلَانُ.

وَقَدْ قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ فِي السِّيرَةِ: وَلَمَّا قَدِمَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ المدينة -يَعْنِي مَرْجِعَهُ مِنْ أُحُدٍ- وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ بْنِ سَلُولٍ -كَمَا حَدَّثَنِي ابْنُ شِهَابٍ الزُّهْرِيُّ- لَهُ مَقَامٌ يَقُومُهُ كُلَّ جُمُعَةٍ لَا يُنكر، شَرَفًا لَهُ مِنْ نَفْسِهِ وَمِنْ قَوْمِهِ، وَكَانَ فِيهِمْ شَرِيفًا، إِذَا جَلَسَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَهُوَ يَخْطُبُ النَّاسَ قَامَ، فَقَالَ: أَيُّهَا النَّاسُ، هَذَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَيْنَ أَظْهُرِكُمْ، أَكْرَمَكُمُ اللَّهُ بِهِ، وَأَعَزَّكُمْ بِهِ، فَانْصُرُوهُ وَعَزِّرُوهُ، وَاسْمَعُوا لَهُ وَأَطِيعُوا. ثُمَّ جَلَسَ، حَتَّى إِذَا

صنَعَ يومَ أُحد ما صنع -يعْني مرجعه بثُلثِ الْجيْشِ-ورَجعَ النَّاس قَام يفعلُ ذَلِكَ كمَا كَانَ يفْعلُهُ، فَأَخذَ الْمُسلْمُونَ بثِيَابهِ منْ نوَاحِيهِ وقَالُوا: اجلسْ، أَيْ عَدُوَّ اللَّهِ، لَسْتَ لِذَلِكَ بِأَهْلٍ، وقَدْ صنعت ما صنعت. فَخرَج يتَخَطَّى رقَاب النَّاسِ وهُوَ يقُولُ: واللَّهِ لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بجرْا؛ أَنْ قُمت أُشدِّدُ أَمْرَهُ. فلَقيَه رجَالٌ منَ الْأَنْصَارِ ببَابِ الْمَسْجِدِ فقَالُوا: ويْلَك. مَا لكَ؟ قَالَ: قمتُ أُشدِّدُ أَمرَه، فوَثَبَ علَيَّ رِجَالٌ منْ أَصحَابِهِ يجْذِبُونَنِي ويُعَنِّفُونَني، لَكَأَنَّمَا قُلْتُ بَجْرًا، أَنْ قُمْتُ أُشدد أَمرَه. قَالُوا: ويْلَك. ارجِعْ يسْتَغفِرْ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيهِ وسَلَّمَ. فقَال: واللَّهِ مَا أَبْتَغِي أَنْ يستَغْفِرَ لِي

وقَالَ قتَادَةُ والسُّدِّيُّ: أُنْزِلَتْ هذِهِ الْآيَةُ فِي عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ، وذَلِكَ أَنَّ غُلَامًا منْ قرَابتِهِ انْطَلَقَ إِلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فَحدَّثَه بحَدِيثٍ عنْهُ وأَمْرٍ شدِيد، فدعَاه رسُولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّمَ، فَإِذَا هُوَ يَحْلِفُ باللَّهِ ويتبرأُ منْ ذَلِكَ، وأَقْبَلَتِ الْأَنْصَارُ علَى ذَلِكَ الْغُلَامِ فَلَامُوه وعذَموه وأَنْزَلَ اللَّهُ فيهِ ما تسْمَعُونَ، وقِيلَ لِعَدُوِّ اللَّهِ: لَوْ أَتَيْتَ رسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّمَ؟ فجعَل يلْوِي رأْسَهُ، أَيْ: لَستُ فَاعِلًا

وقَال ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ: حدَّثَنا أَبِي، حَدَّثَنا أَبُو الرَّبِيعِ الزَّهْرانيُّ، حدَّثَنا حمَّادُ بنُ زيْدٍ، حدَّثَنا أَيُّوبُ، عَنِ سَعِيدِ بْنُ جُبَيْرٍ: أَنَّ رسُولَ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّمَ كانَ إِذَا نزَلَ منْزِلًا لَمْ يرتَحِلْ حتَّى يُصلِّي فيهِ، فلَمَّا كَانَتْ غزْوَةُ تبُوك بلَغَهُ أَنَّ عبدَ الله ابن أَبَيِّ بْنِ سلُولٍ قَالَ: {لَيُخرِجَنَّ الأعزُّ منهَا الأذلَّ} فارْتَحلَ قبْلَ أَنْ ينْزِلَ آخرَ النَّهارِ، وقِيلَ لعبْدِ اللَّهِ بنِ أُبَيٍّ: ائتِ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ علَيْهِ وسَلَّم حتَّى يسْتَغفِرَ لكَ. فأَنْزلَ اللَّهُ: {إِذَا جاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} إِلَى قوْلِهِ: {وإِذَا قيلَ لَهمْ تعَالَوْا يسْتَغفِرْ لَكُمْ رسُولُ اللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهمْ}

وهَذَا إِسنَادٌ صحِيحٌ إِلَى سعِيدِ بنِ جُبَيْرٍ. وقَوْلُهُ: إِنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي غزْوةِ تبُوكَ، فيهِ نظَرٌ، بلْ لَيْسَ بِجَيِّدٍ؛ فإِنَّ عبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سلُولٍ لَمْ يكُنْ مِمَّنْ خرَجَ فِي غزْوَةِ تبُوكَ، بلْ رجَع بطَائِفَةٍ منَ الْجيْشِ. وإِنَّمَا الْمشْهُورُ عنْدَ أَصحَابِ الْمَغَازِي والسِّيَرِ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي غزْوَةِ المُرَيسِيع، وهِيَ غزْوَةُ بنِي المصطلق.

قَالَ يُونسُ بْنُ بُكَيْرٍ، عنِ ابْنِ إِسحَاقَ: حدَّثَني مُحمَّدُ بْنُ يحْيَى بْنِ حبَّانَ، وعَبْدِ اللَّهِ بْنِ أَبِي بكْرٍ، وعَاصمِ بْنِ عُمَرَ بْنِ قَتَادَةَ، فِي قِصَّةِ بَنِي الْمُصْطَلِقِ: فَبيْنَا رسُولُ اللَّهِ مُقِيمٌ هُنَاكَ، اقْتَتَلَ علَى الْمَاءِ جهجاه بْنُ سعِيدٍ الْغِفَارِيُّ -وكَانَ أَجيرًا-لِعمَرَ بْنِ الْخطَّابِ، وسِنَانُ بْنُ وبْرٍ قَالَ ابْنُ إِسْحَاقَ: فَحدَّثَنِي مُحَمَّدُ بْنُ يحْيَى بْنِ حبَّانَ قَالَ: ازدحمَا علَى الْمَاءِ فَاقْتَتَلَا فقَالَ سِنَانٌ: يا معْشَرَ الْأَنْصارِ. وقَالَ الْجهْجَاهُ: يَا معْشَرَ الْمُهَاجِرِينَ -وزَيْدُ بْنُ أَرقَمَ ونَفَرٌ منَ الْأَنْصَارِ عنْدَ عبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ-فلَمَّا سمِعهَا قَالَ: قَدْ

ثاورونا في بلادنا. والله ما مثلنا وجلابيب قريش هذه إلا كما قال القائل: "سمن كلبك يأكلك". والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. ثم أقبل على من عنده من قومه وقال: هذا ما صنعتم بأنفسكم، أحللتموهم بلادكم، وقاسمتموهم أموالكم، أما والله لو كففتم عنهم لتحولوا عنكم في بلادكم إلى غيرها. فسمعها زيد ابن أرقم، فذهب بها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غليم -وعنده عمر بن الخطاب رضي الله عنه-فأخبره الخبر، فقال عمر رضي الله عنه: يا رسول الله مر عباد بن بشر فليضرب عنقه. فقال صلى الله عليه وسلم: "فكيف إذا تحدث الناس -يا عمر-أن محمدا يقتل أصحابه؟ لا ولكن ناد يا عمر في الرحيل".

فلما بلغ عبد الله بن أبي أن ذلك قد بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، أتاه فاعتذر إليه، وحلف بالله ما قال ما قال عليه زيد بن أرقم -وكان عند قومه بمكان-فقالوا: يا رسول الله، عسى أن يكون هذا الغلام أوهم ولم يثبت ما قال الرجل.

وراح رسول الله صلى الله عليه وسلم مهجرا في ساعة كان لا يروح فيها، فلقيه أسيد بن الحضير فسلم عليه بتحية النبوة، ثم قال: والله لقد رحت في ساعة منكرة ما كنت تروح فيها. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أما بلغك ما قال صاحبك ابن أبي؟. زعم أنه إذا قدم المدينة سيخرج الأعز منها الأذل". قال: فأنت -يا رسول الله-العزيز وهو الذليل. ثم قال: يا رسول الله ارفق به فوالله لقد جاء الله بك وإنا لننظم له الخرز لنتوجه، فإنه ليرى أن قد استلبته ملكا.

فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس حتى أمسوا، ليلته حتى أصبحوا، وصدر يومه حتى اشتد الضحى. ثم نزل بالناس ليشغلهم عما كان من الحديث، فلم يأمن الناس أن وجدوا مس الأرض فناموا، ونزلت سورة المنافقين

وقال الحافظ أبو بكر البيهقي: أخبرنا أبو عبد الله الحافظ، أخبرنا أبو بكر بن إسحاق، أخبرنا بشر بن موسى، حدثنا الحميدي، حدثنا سفيان، حدثنا عمرو بن دينار، سمعت جابر بن عبد الله يقول: كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: يالالأنصار. وقال المهاجري: يا للمهاجرين. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما بال دعوى الجاهلية؟ دعوها فإنها منتنة". وقال عبد الله بن أبي بن سلول -وقد فعلوها-: والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. قال جابر: وكان الأنصار بالمدينة أكثر من المهاجرين حين قدم

رَسولُ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ ثُمَّ كثُرَ الْمُهَاجِرون بعْدَ ذلك، فقالَ عمرُ: دعْني أَضْرِبْ عنُقَ هذا الْمُنافِقِ. فقَالَ النَّبِيُّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وسلَّمَ: "دعْهُ؛ لَا يتحدَّثُ النَّاس أَنَّ محمَّدًا يقْتُلُ أَصْحَابَه"

وَرَوَاهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ عَنْ حسَيْنِ بنِ محمدٍ الْمَرْوَزِيِّ، عَنْ سُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ ورواه الْبُخَارِيُّ عَنِ الْحُمَيْدِيِّ، ومُسْلمٌ عنْ أَبِي بكْرِ بنِ أَبِي شيْبَةَ وغيْرِه، عنْ سُفْيَانَ، بِه نَحْوَهُ

وَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: حدَّثَنا محمَّدُ بْنُ جعفرٍ، حدَّثنا شُعْبَةُ، عَنِ الْحَكَمِ، عنْ محمَّدِ بنِ كعبٍ الْقُرَظِيِّ، عنْ زيْدِ بْنِ أَرْقَمَ قَالَ: كُنْتُ مع رسُولِ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في غَزْوَةِ تَبُوكَ، فقَالَ عبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ: لئِنْ رجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ ليُخْرِجَنَّ الْأَعزُّ منها الْأَذَلَّ. قَالَ: فأَتَيْتُ النَّبِيَّ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وَسَلَّمَ فأَخْبَرْتُهُ، قَالَ: فحلَفَ عبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ شَيْءٌ مِنْ ذلك. قَالَ: فلَامَنِي قوْمِي وقَالُوا: ما أردت إِلَى هذا؟ قَالَ: فَانْطَلَقْتُ فنمتُ كئِيبًا حزِينا، قَالَ: فأَرْسَلَ إِلَى نَبِيُّ اللَّهِ صلَّى اللَّهُ عليْهِ وَسَلَّمَ فقَالَ: "إِنَّ اللَّهَ قدْ أَنْزَلَ عُذرك وصدَّقك". قَالَ: فنزَلَتْ هذهِ الْآيَةُ {هُمُ الَّذِين يقُولُون لَا تُنْفِقُوا علَى منْ عنْدَ رسُولِ اللَّهِ حتَّى ينْفَضُّوا} حتَّى بلَغَ: {لَئِنْ رجعْنَا إِلَى الْمَدِينةِ ليُخْرِجَنَّ الأعزُّ منْهَا الأذلَّ}

وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ عنْدَ هذهِ الْآيَةِ، عنْ آدَمَ بنِ أَبِي إِيَاسٍ، عَنْ شُعْبَةَ ثُمَّ قَالَ: "وَقَالَ ابْنُ أَبِي زَائِدَةَ، عَنِ الْأَعْمَشِ، عَنْ عمْرٍو، عَنِ ابْنِ أَبِي لَيْلَى، عَنْ زَيْدٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ وَالنَّسَائِيُّ عِنْدَهُمَا أَيْضًا مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ، بِهِ

طَرِيقٌ أُخْرَى عَنْ زَيْدٍ: قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، رَحِمَهُ اللَّهُ، حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ، وَيَحْيَى بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ (7) قَالَ: حَدَّثَنَا إِسْرَائِيلُ، عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ قَالَ: سَمِعْتُ زَيْدَ بْنَ أَرْقَمَ –وَقَالَ ابْنُ أَبِي بُكَيْرٍ (8) عَنْ زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ–قَالَ: خَرَجْتُ مَعَ عَمِّي فِي غَزَاةٍ، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ، وَلَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَذَكَرْتُ ذَلِكَ لِعَمِّي فَذَكَرَهُ عَمِّي لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَحَدَّثْتُهُ فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيِّ بْنِ سَلُولٍ وَأَصْحَابِهِ فَحَلَفُوا مَا قَالُوا: فَكَذَّبَنِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَدَّقَهُ، فَأَصَابَنِي هَمٌّ لَمْ يُصِبْنِي مِثْلُهُ قَطُّ، وَجَلَسْتُ فِي الْبَيْتِ، فَقَالَ عَمِّي: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنْ كَذَّبَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَقَتَكَ. قَالَ: حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} قَالَ: فَبَعَثَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَرَأَهَا رَسُولُ اللَّهِ عَلَيَّ، ثُمَّ قَالَ: "إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ"

ثُمَّ قَالَ أَحْمَدُ أَيْضاً: حَدَّثَنَا حَسَنُ بْنُ مُوسَى، حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ، حَدَّثَنَا أَبُو إسحاق: أنه سمع زيد ابن أَرْقَمَ يَقُولُ: خَرَجْنَا مع رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ، فَأَصَابَ النَّاسَ شدةٌ، فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ لِأَصْحَابِهِ: لا تنفقوا على من عند رسول الله حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حوله. وَقَالَ: لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَخْبَرْتُهُ بِذَلِكَ، فَأَرْسَلَ إِلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ أُبَيٍّ فَسَأَلَهُ، فَاجْتَهَدَ يمينه مَا فَعَلَ. فقَالُوا: كَذَبَ زَيْدٌ يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَوَقَعَ فِي نَفْسِي مَا قَالُوا، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ تَصْدِيقِي: {إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ} قَالَ: وَدَعَاهُمْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيَسْتَغْفِرَ لهم، فلووا رؤوسهم. وقَوْلُه تَعَالَى: {كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُسَنَّدَةٌ} قَالَ: كَانُوا رِجَالًا أَجْمَلَ شَيْءٍ. وَقَدْ رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ وَالنَّسَائِيُّ، مِنْ حَدِيثِ زُهَيْرٍ وَرَوَاهُ الْبُخَارِيُّ أَيْضًا وَالتِّرْمِذِيُّ مِنْ حَدِيثِ إِسْرَائِيلَ، كِلَاهُمَا عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ عَمْرِو بْنِ عَبْدِ اللَّهِ السَّبِيعِيِّ الْهَمْدَانِيِّ الْكُوفِيِّ، عَنْ زَيْدٍ، بِهِ. طَرِيقٌ أُخْرَى عَنْ زَيْدٍ: قَالَ أَبُو عِيسَى التِّرْمِذِيُّ: حَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيد، حَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ مُوسَى، عَنْ إِسْرَائِيلَ، عَنِ السُّدِّيِّ، عَنْ أَبِي سَعْدٍ الْأَزْدِيِّ قَالَ: حَدَّثَنَا زَيْدُ بْنُ أَرْقَمَ قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ مَعَنَا أُنَاسٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَكُنَّا نَبْتَدِرُ الْمَاءَ، وَكَانَ الْأَعْرَابُ يَسْبِقُونَنَا يَسْبِقُ الْأَعْرَابِيُّ أَصْحَابَهُ يَمْلَأُ الْحَوْضَ، وَيَجْعَلُ حَوْلَهُ حِجَارَةً، وَيَجْعَلُ النَّطْعَ عَلَيْهِ حَتَّى يَجِيءَ أَصْحَابُهُ. قَالَ: فَأَتَى رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ الْأَعْرَابِيَّ، فَأَرْخَى زِمَامَ نَاقَتِهِ لِتَشْرَبَ، فَأَبَى أَنْ يَدَعَهُ، فَانْتَزَعَ حَجَرًا فَفَاضَ الْمَاءُ، فَرَفَعَ الْأَعْرَابِيُّ خَشَبَةً، فَضَرَبَ بِهَا رَأْسَ الْأَنْصَارِيِّ فَشَجَّهُ، فَأَتَى عبدَ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ رأسَ الْمُنَافِقِينَ فَأَخْبَرَهُ –وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِهِ–فَغَضِبَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أُبَيٍّ، ثُمَّ قَالَ: لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُّوا مِنْ حَوْلِهِ –يَعْنِي الْأَعْرَابَ–وَكَانُوا يَحْضُرُونَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ الطَّعَامِ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا انْفَضُّوا مِنْ عِنْدِ مُحَمَّدٍ فَائْتُوا مُحَمَّدًا بِالطَّعَامِ، فَلْيَأْكُلْ هُوَ وَمَنْ عِنْدَهُ، ثُمَّ قَالَ لِأَصْحَابِهِ: إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيُخْرِجِ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَذَلَّ. قَالَ زَيْدٌ: وَأَنَا رِدْفُ عَمِّي، فَسَمِعْتُ عَبْدَ اللَّهِ فَأَخْبَرْتُ عَمِّي، فَانْطَلَقَ فَأَخْبَرَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ رَسُولُ اللَّهِ، فَحَلَفَ وَجَحَدَ، قَالَ: فَصَدَّقَهُ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبَنِي، فَجَاءَ إِلَيَّ عَمِّي فَقَالَ: مَا أَرَدْتَ إِلَّا أَنَّ مَقَتَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَذَّبَكَ الْمُسْلِمُونَ. فَوَقَعَ عَلَيَّ مِنَ الْغَمِّ مَا لَمْ يَقَعْ عَلَى أَحَدٍ قَطُّ، فَبَيْنَمَا أَنَا أَسِيرُ مَعَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي سَفَرٍ وَقَدْ خَفَقْتُ بِرَأْسِي مِنَ الْهَمِّ، إِذْ أَتَانِي رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعَرَكَ أُذُنِي، وَضَحِكَ فِي وَجْهِي، فَمَا كَانَ يَسُرُّنِي أَنَّ لِي بِهَا الْخُلْدَ فِي الدُّنْيَا، ثُمَّ إِنَّ أَبَا بَكْرٍ لَحِقَنِي وَقَالَ: مَا قَالَ لَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُلْتُ: مَا قَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ شَيْئًا، غَيْرَ أَنْ عَرَكَ أُذُنِي وَضَحِكَ فِي

وَجْهِي. فَقَالَ: أَبْشِرْ. ثُمَّ لَحِقَنِي عُمَرُ فَقُلْتُ لَهُ مِثْلَ قَوْلِي لِأَبِي بَكْرٍ. فَلَمَّا أَنْ أَصْبَحْنَا قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُورَةَ الْمُنَافِقِينَ»[1]

هذا النص يُمثّل تفسيراً مختصراً لآياتٍ من سورة "المنافقون"، يُوضّح فيه المفسر حالَ المنافقين الذين يُظهرون الإسلام قولًا بألسنتهم عند النبي ﷺ، بينما يُخفون الكفر في قلوبهم. وقد فضحهم الله بقوله: {والله يشهد إن المنافقين لكاذبون} لأنهم لا يعتقدون ما يقولونه. كما بيّن أن هؤلاء اتخذوا من أيمانهم الكاذبة وسيلةً للتستر والخداع، مما أضلّ الناس وظنّوهم مؤمنين، فتأثّر بهم بعضهم. ثم وصفهم الله بأنهم ذوو مظهر حسن وكلام بليغ، لكنهم جبناء فارغون من الإيمان، لذا قال عنهم: {هم العدو فاحذرهم}. وتختم الفقرة بذكر سياق نزول الآيات في عبد الله بن أبيّ ابن سلول، كبير المنافقين، ورفضه الاستغفار من النبي ﷺ، استكباراً وعناداً.

---

[1] - ابن كثير، (8/125-130).

الخاتمة

الخاتمة:

اختلفت الرّوايات وتعددت وكذلك الدراسات في شرح وتفسير ما جاء في كتاب الله عز وجل في وصف المنافقين.

وباعتماد الدلالة السياقية والتي بها تعرف الظروف المصاحبة لنزول الآيات أجمعت كلها على سفاهة هذه الفئة وعدائها للإسلام والمسلمين وإن تعدد أساليبهم ونفاقهم المتجدد في كل الميادين ينبئ عن خطرهم الكبير على الأمة الإسلامية فهم باقون بقاء هذه الأمة بدليل أنهم فئة تندس بين المسلمين وتوالي الكافرين ويستغلون كل ما تقضى به مصالحهم.

وذكرهم في القرآن وكشف ما يضمرون من بغض وعداء للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه هو إشارة لنا بأن نتوخى الحذر منهم.

وإن طباع طبائعهم ثابتة فيهم لا تتغير فهم العدو وهم الذين أمر النبي صلى الله عليه وسلم بجهادهم والغلظة عليهم وبشرهم بالعذاب الأليم، لهذا فهم في زماننا هذا أيضا يستغلون ما تباح للهم اليوم مما يضمن مصالحهم. ويبث الفتنة بين المسلمين لتقويض معالم هذا الدين.

إن التطور الحاصل من حيث استغلال وسائل الإعلام والتكنولوجيا من أهم المواضع لنفث سمومهم في المواقع.

إن الأخلاق الفاضلة الكريمة مكسب عظيم وأهم سلاح ضدّ هؤلاء الأعداء فصدق أصحاب النبي وإخلاصهم كان درعا واقيا من مكائدهم، فتربية الأجيال على الصدق في القول والعمل وتعريفهم بهذه الفئة الضالة المضلة ضروري لقوة الإسلام والمسلمين.

ومما دلت عليه كثرة ورودهم بنعوت مختلفة في القرآن الكريم تتطلب جهدا كبيرا ومتواصلا في مختلف المجالات بدءا بتدبر القرآن وتعلمه وتعليمه ومجاهدة النفس في إتباع هواهم وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة والعمل على مواكبة ما يحصل من تطور لاستغلال الوسائل المعاصرة في الحدّ من تفاقم الأخطار وزيادة الأضرار والتشجيع على البحث في هكذا مواضيع للوقوف على ما يستعملونه من أساليب ووسائل تقضي على أسباب النمو والاستقرار بأبعاد دينية واجتماعية واقتصادية وثقافية.

فهرس الآيات القرآنية

فهرس الايات القرانية

	السورة	الاية	الصفحة
البقرة	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَمَا هُم بِمُؤۡمِنِينَ ٨ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَمَا يَخۡدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمۡ وَمَا يَشۡعُرُونَ ٩ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ وَلَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمُۢ بِمَا كَانُواْ يَكۡذِبُونَ ١٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ لَا تُفۡسِدُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحۡنُ مُصۡلِحُونَ ١١ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلۡمُفۡسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشۡعُرُونَ ١٢ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ ءَامِنُواْ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُۗ أَلَآ إِنَّهُمۡ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعۡلَمُونَ ١٣ وَإِذَا لَقُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوۡاْ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمۡ قَالُوٓاْ إِنَّا مَعَكُمۡ إِنَّمَا نَحۡنُ مُسۡتَهۡزِءُونَ ١٤ ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ وَيَمُدُّهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ ١٦ مَثَلُهُمۡ كَمَثَلِ ٱلَّذِي ٱسۡتَوۡقَدَ نَارٗا فَلَمَّآ أَضَآءَتۡ مَا حَوۡلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمۡ وَتَرَكَهُمۡ فِي ظُلُمَٰتٖ لَّا يُبۡصِرُونَ ١٧ صُمُّۢ بُكۡمٌ عُمۡيٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ ١٨ أَوۡ كَصَيِّبٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٞ وَرَعۡدٞ وَبَرۡقٞ يَجۡعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمۡ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلۡمَوۡتِۚ وَٱللَّهُ مُحِيطُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ١٩ يَكَادُ ٱلۡبَرۡقُ يَخۡطَفُ أَبۡصَٰرَهُمۡۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوۡاْ فِيهِ وَإِذَآ أَظۡلَمَ عَلَيۡهِمۡ قَامُواْۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمۡعِهِمۡ وَأَبۡصَٰرِهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾	20–8	29
البقرة	﴿۞سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمۡ عَن قِبۡلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُواْ عَلَيۡهَاۚ قُل لِّلَّهِ ٱلۡمَشۡرِقُ وَٱلۡمَغۡرِبُۚ يَهۡدِي مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ١٤٢ وَكَذَٰلِكَ جَعَلۡنَٰكُمۡ أُمَّةٗ وَسَطٗا لِّتَكُونُواْ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيۡكُمۡ شَهِيدٗاۗ وَمَا جَعَلۡنَا ٱلۡقِبۡلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيۡهَآ إِلَّا لِنَعۡلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيۡهِۚ وَإِن كَانَتۡ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٞ رَّحِيمٞ ١٤٣﴾.	143–142	30
البقرة	﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي	206–204	33

	قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ ٢٠٤ وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ ٢٠٥ وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ ۚ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ ۚ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ٢٠٦ ﴾		
آل عمران	﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ ۗ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ١١٠ ﴾	110	I
آل عمران	﴿ هَٰٓأَنتُمْ أُوْلَآءِ تُحِبُّونَهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِٱلْكِتَٰبِ كُلِّهِۦ وَإِذَا لَقُوكُمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ عَضُّوا۟ عَلَيْكُمُ ٱلْأَنَامِلَ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۚ قُلْ مُوتُوا۟ بِغَيْظِكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١١٩ إِن تَمْسَسْكُمْ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِن تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا۟ بِهَا ۖ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ١٢٠ ﴾	119، 120	33
آل عمران	﴿ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٥٤ ﴾	154	34
آل عمران	﴿ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ١٦٧ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ١٦٨ ﴾	167، 168	35
آل عمران	﴿ لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ١٨٨ ﴾	188	36

النساء	﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦۖ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلَۢا بَعِيدًا ٦٠ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ٦١ فَكَيْفَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةُۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَآءُوكَ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّآ إِحْسَٰنًا وَتَوْفِيقًا ٦٢ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلَۢا بَلِيغًا ٦٣ ﴾	60 – 63	37
النساء	﴿وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُواْ مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَآئِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ ٱلَّذِي تَقُولُۖ وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ٨١﴾	81	38
النساء	﴿۞فَمَا لَكُمْ فِي ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِئَتَيْنِ وَٱللَّهُ أَرْكَسَهُم بِمَا كَسَبُوٓاْۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَهْدُواْ مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُۖ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ٨٨﴾	88	39
النساء	﴿سَتَجِدُونَ ءَاخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُواْ قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوٓاْ إِلَى ٱلْفِتْنَةِ أُرْكِسُواْ فِيهَاۚ فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوٓاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ٩١﴾	91	40
النساء	﴿ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ١٠٧ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ١٠٨ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ١٠٩﴾	107ــ109	41
النساء	﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا ١٤٠ ٱلَّذِينَ	140–145	43

	يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ١٤٤ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ فِي ٱلدَّرۡكِ ٱلۡأَسۡفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ وَلَن تَجِدَ لَهُمۡ نَصِيرًا ١٤٥ ﴾		
النساء	﴿ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ ﴾	141	45
النساء	﴿ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ ﴾	143–141	47
النساء	﴿ ٱلَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمۡ فَإِن كَانَ لَكُمۡ فَتۡحٞ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡ وَإِن كَانَ لِلۡكَٰفِرِينَ نَصِيبٞ قَالُوٓاْ أَلَمۡ نَسۡتَحۡوِذۡ عَلَيۡكُمۡ وَنَمۡنَعۡكُم مِّنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِۗ وَلَن يَجۡعَلَ ٱللَّهُ لِلۡكَٰفِرِينَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ سَبِيلًا ١٤١ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ وَإِذَا قَامُوٓاْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُواْ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذۡكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلٗا ١٤٢ مُّذَبۡذَبِينَ بَيۡنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِۚ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلٗا ١٤٣ ﴾	147–144	49
المائدة	﴿۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا	41	51

		بِأَفْوَٰهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوْمٍ ءَاخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ مِنۢ بَعْدِ مَوَاضِعِهِۦۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَٱحْذَرُواْۚ وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمْ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمْۚ لَهُمْ فِي ٱلدُّنْيَا خِزْيٌۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ٤١ ﴾	
53	52–51	﴿ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُواْ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّواْ فِيٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ٥٢ ﴾	المائدة
55	62ـــ61	﴿ وَإِذَا جَآءُوكُمْ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا وَقَد دَّخَلُواْ بِٱلْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُواْ بِهِۦۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُواْ يَكْتُمُونَ ٦١ وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَۚ لَبِئْسَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٦٢ ﴾	المائدة
56	8	﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُواْ عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُواْ فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ يُرْضُونَكُم بِأَفْوَٰهِهِمْ وَتَأْبَىٰ قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَٰسِقُونَ ٨ ﴾	التوبة
57	11–9	﴿ ٱشْتَرَوْاْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِهِۦٓۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ٩ لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةًۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُعْتَدُونَ ١٠ فَإِن تَابُواْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِۗ وَنُفَصِّلُ ٱلْأٓيَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ١١ ﴾	التوبة
57	45	﴿إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ٤٥ ﴾	التوبة
58	46	﴿۞وَلَوْ أَرَادُواْ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ٤٦ ﴾	التوبة
58	47	﴿لَوْ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُواْ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ	التوبة

	ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ٤٧ ﴾		
التوبة	﴿ إِن تُصِبۡكَ حَسَنَةٞ تَسُؤۡهُمۡۖ وَإِن تُصِبۡكَ مُصِيبَةٞ يَقُولُواْ قَدۡ أَخَذۡنَآ أَمۡرَنَا مِن قَبۡلُ وَيَتَوَلَّواْ وَّهُمۡ فَرِحُونَ ٥٠ ﴾	50	58
التوبة	﴿ وَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمۡ لَمِنكُمۡ وَمَا هُم مِّنكُمۡ وَلَٰكِنَّهُمۡ قَوۡمٞ يَفۡرَقُونَ ٥٦ لَوۡ يَجِدُونَ مَلۡجَـًٔا أَوۡ مَغَٰرَٰتٍ أَوۡ مُدَّخَلٗا لَّوَلَّوۡاْ إِلَيۡهِ وَهُمۡ يَجۡمَحُونَ ٥٧ وَمِنۡهُم مَّن يَلۡمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنۡ أُعۡطُواْ مِنۡهَا رَضُواْ وَإِن لَّمۡ يُعۡطَوۡاْ مِنۡهَآ إِذَا هُمۡ يَسۡخَطُونَ ٥٨ ﴾	56 – 58	59
التوبة	﴿ وَمِنۡهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٞۚ قُلۡ أُذُنُ خَيۡرٖ لَّكُمۡ يُؤۡمِنُ بِٱللَّهِ وَيُؤۡمِنُ لِلۡمُؤۡمِنِينَ وَرَحۡمَةٞ لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡذُونَ رَسُولَ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٌ أَلِيمٞ ٦١ ﴾	61	60
التوبة	﴿ يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ ﴾	64 – 68	61
التوبة	﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَقۡبِضُونَ أَيۡدِيَهُمۡۚ نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۚ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ٦٧ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ هِيَ حَسۡبُهُمۡۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُۖ وَلَهُمۡ عَذَابٞ مُّقِيمٞ ٦٨ ﴾	67–68	62
التوبة	﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ ٧٣ يَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدۡ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلۡكُفۡرِ وَكَفَرُواْ بَعۡدَ	73–74	62

	إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْۚ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦۚ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْۖ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِۚ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ٧٤ ﴾		
التوبة	﴿ ٱلْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُواْ حُدُودَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ٩٧ وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَۚ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ٩٨ ﴾	98–97	65
التوبة	﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُواْ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْۚ سَنُعَذِّبُهُم مَّرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلَىٰ عَذَابٍ عَظِيمٍ ١٠١ ﴾	101	66
التوبة	﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ١٠٧ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًاۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ١٠٨ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ١٠٩ لَا يَزَالُ بُنْيَٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْاْ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ١١٠ ﴾	110–107	66
التوبة	﴿ وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًاۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ١٢٤ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ١٢٥ ﴾	125–124	68
النور	﴿ وَيَقُولُونَ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلرَّسُولِ وَأَطَعْنَا ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ٤٧ وَإِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ٤٨ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓاْ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ٤٩ أَفِى قُلُوبِهِم	50–47	69

	مَّرَضٌ أَمِ ٱرۡتَابُوٓاْ أَمۡ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَرَسُولُهُۥۚ بَلۡ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٥٠﴾		
العنكبوت	﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِيَ فِي ٱللَّهِ جَعَلَ فِتۡنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِۖ وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ أَوَ لَيۡسَ ٱللَّهُ بِأَعۡلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٠ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ١١﴾	11–10	70
الأحزاب	﴿۞لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ٦٠ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ٦١ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾	62 – 60	72
الأحزاب	﴿لِّيُعَذِّبَ ٱللَّهُ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ وَيَتُوبَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورٗا رَّحِيمَۢا ٧٣﴾	73	73
محمد	﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخۡرِجَ ٱللَّهُ أَضۡغَٰنَهُمۡ ٢٩ وَلَوۡ نَشَآءُ لَأَرَيۡنَٰكَهُمۡ فَلَعَرَفۡتَهُم بِسِيمَٰهُمۡۚ وَلَتَعۡرِفَنَّهُمۡ فِي لَحۡنِ ٱلۡقَوۡلِۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ٣٠﴾	30 – 29	73
الفتح	﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرٗا ٦﴾	6	74
الفتح	﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلۡمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ شَغَلَتۡنَآ أَمۡوَٰلُنَا وَأَهۡلُونَا فَٱسۡتَغۡفِرۡ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلۡسِنَتِهِم مَّا لَيۡسَ فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلۡ فَمَن يَمۡلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔا إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ ضَرًّا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ نَفۡعَۢاۚ بَلۡ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرَۢا ١١﴾	11	75
الحديد	﴿ يَوۡمَ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱنظُرُونَا نَقۡتَبِسۡ مِن نُّورِكُمۡ قِيلَ ٱرۡجِعُواْ وَرَآءَكُمۡ فَٱلۡتَمِسُواْ نُورٗاۖ فَضُرِبَ بَيۡنَهُم بِسُورٖ لَّهُۥ بَابُۢ	14–13	76

	بَاطِنُهُۥ فِيهِ ٱلرَّحۡمَةُ وَظَٰهِرُهُۥ مِن قِبَلِهِ ٱلۡعَذَابُ ١٣ يُنَادُونَهُمۡ أَلَمۡ نَكُن مَّعَكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ وَلَٰكِنَّكُمۡ فَتَنتُمۡ أَنفُسَكُمۡ وَتَرَبَّصۡتُمۡ وَٱرۡتَبۡتُمۡ وَغَرَّتۡكُمُ ٱلۡأَمَانِيُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلۡغَرُورُ ١٤﴾		
المنافقون	﴿إِذَا جَآءَكَ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ قَالُواْ نَشۡهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشۡهَدُ إِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَكَٰذِبُونَ ١ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيۡمَٰنَهُمۡ جُنَّةٗ فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّهُمۡ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمۡ فَهُمۡ لَا يَفۡقَهُونَ ٣ ۞وَإِذَا رَأَيۡتَهُمۡ تُعۡجِبُكَ أَجۡسَامُهُمۡۖ وَإِن يَقُولُواْ تَسۡمَعۡ لِقَوۡلِهِمۡۖ كَأَنَّهُمۡ خُشُبٞ مُّسَنَّدَةٞۖ يَحۡسَبُونَ كُلَّ صَيۡحَةٍ عَلَيۡهِمۡۚ هُمُ ٱلۡعَدُوُّ فَٱحۡذَرۡهُمۡۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ٤ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ يَسۡتَغۡفِرۡ لَكُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوۡاْ رُءُوسَهُمۡ وَرَأَيۡتَهُمۡ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسۡتَكۡبِرُونَ ٥ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ لَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡفَٰسِقِينَ ٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنۡ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَفۡقَهُونَ ٧ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعۡنَآ إِلَى ٱلۡمَدِينَةِ لَيُخۡرِجَنَّ ٱلۡأَعَزُّ مِنۡهَا ٱلۡأَذَلَّۚ وَلِلَّهِ ٱلۡعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلۡمُؤۡمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ٨﴾	1 – 8	79

القران الكريم برواية حفص عن عاصم.

المصادر والمراجع:

1- إبراهيم أنيس، *دلالة الألفاظ*، ص48.

2- ابن القيم، *صفات المنافقين*، المكتب الإسلامي، بيروت، ط 1399هـ.

3- ابن فارس، *مقاييس اللغة* (دل) (259/2)، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، ط 1399هـ / 1979م.

4- ابن منظور، *لسان العرب* (دلل) (399/1) وما بعدها، دار الحديث، ط 1427هـ / 2006م.

5- أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، *تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن*، تحقيق: د. عبد الله بن عبد المحسن التركي، دار هجر، القاهرة، الطبعة الأولى، 1422هـ.

6- أحمد مختار عمر، *علم الدلالة*، علم الكتب.

7- الألوسي، روح المعاني، .(6/268–269)

8- الحميدي، عبد العزيز بن عبد الله، *المنافقون في القرآن الكريم*، ط2، 2009.

9- الرديني، محمد علي عبد الكريم، *علم اللغة العام*، دار الهدى، ط 2009م.

10- الرزوق، سهام إبراهيم، "علم الدلالة الحديث (نشأته، أنواعه، مدارسه ومصطلحاته)"، *مجلة العلوم الإنسانية والطبيعية*.

11- الزمخشري، جار الله أبو القاسم محمود بن عمر، *الكشاف*، مكتبة العبيكان، ط1، 1998م.

12- السعد، سعد بن عبد الله الحميد (مشرف)، "أنواع النفاق"، *شبكة الألوكة الشرعية*.

13- السعران، محمود، *علم اللغة*.

14- الشعراوي

15- عرفات فيصل المناع، *السياق والمعنى: دراسة في أساليب النحو*، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2013م.

16- علي بن الجهم (188هـ)، تح: خليل مراد، الناشر: وزارة المعارف المملكة العربية السعودية، 1400ه.

17- غير معروف المؤلف، *علم اللغة بين القديم والحديث*.

18- مجلة المخبر، *أبحاث في اللغة والأدب الجزائري*، جامعة بسكرة، الجزائر، العدد التاسع، 2013م.

19- موقع إسلام ويب، "النفاق الأكبر وكلام شيخ الإسلام ابن تيمية."

فهرس المحتويات

فهرس المحتويات

الاهداء I

الشكر والعرفان.. II

مقدمة 5

مدخل: الدرس الدلالي في الدراسات اللغوية 4

1ــ1) مفهوم الدلالة: 5

1ــ2) نشأة علم الدلالة: 6

1-الدلالة عند المحدثين.. 12

2-1- المدارس اللسانية الغربية: 12

2-أهمية الدلالة 18

المبحث الأول: النفاق والمنافقون في القرآن الكريم.. 22

المطلب الأول: مفهوم النفاق وأنواعه.. 23

1- تعريف النفاق: 23

2- أنواع النفاق: 23

المبحث الثاني: دلالة أوصاف المنافقين في القرآن الكريم.. 28

الخاتمة 87

فهرس الآيات القرآنية.. 89

فهرس الايات القرانية.. 90

فهرس المحتويات 101

فهرس المحتويات 102